

هكذا علمتني
الدعوة إلى الله تعالى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

آخر تعديل كان بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٤٤٥ هـ

هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى

ألفه

الدكتور محمد أبو النصر عطار



المؤلف في سطور

- ولد في حلب - ولد في حلب سنة ١٤٠٠ هـ، وتلقى القرآن في الكتاتيب، ثم التحق في المرحلة الإعدادية والثانوية الشرعية بالمدرسة الشعبانية في حلب، وتلقى العلم على يد مدرسيها، ثم تخرج في الأزهر كلية أصول الدين، وبعدها نال الماجستير من جامعة بيروت، ثم الدكتوراه في الحديث الشريف فيها أيضًا.

- كما تلقى العلم على ثلة من أكابر عصره أهمهم والده الشيخ محمد جميل، والشيخ أحمد القلاش، والشيخ محمود ميرة، والشيخ محمد عوامة، والشيخ محمد زهير الناصر، والسيد محمد بن علوي المالكي، والشيخ عبد المجيد البيانوني، والشيخ محمد سعيد بادنجي، والشيخ صلاح الدين الإدلي، والشيخ عبد الوكيل الهاشمي، والشيخ محمد علي طه الدرة وغيرهم.

- عمل في الدعوة إلى الله تعالى من خلال التعليم في حلق القرآن الكريم، والتدريس في المعاهد الشرعية، والحلق المسجدية، والوعظ، والإمامة والخطابة.

- درّس مادة الدعوة في المعاهد الشرعية لبضع سنوات.

- متفرغ للدعوة إلى الله تعالى في مجمع سلطان العلماء.



مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لمن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين بالطريق الصحيح الأنور،
القائل في محكم تنزيله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وصلاة وسلاماً على من سيد الرسل
الكرام المنور، الداعي إلى الله بإذنه والسراج المعطر، سطع نور هداه في شرق
الأرض وغربها، فلم يبق بيت حجر ولا مدر إلا دخله هذا الإسلام، وكان
منهم من اختار النور ومنهم من بقي في الظلام.

أما بعد: فهذه الطبعة الثانية من كتابي: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله
تعالى»، أقدمها بعد نفاذ الطبعة الأولى، وقد زدت عليه زيادات مهمة، كان
بعضها قواعد أساسية، وبعضها في ثنایا أخواتها، سائلاً الله تعالى أن يلهمنا
الرشاد والصواب والسداد.

وقد عرضته على ثلثة من أكابر علماء العصر فقرؤوه وراجعوه، وأبدوا لي
ملاحظاتهم القيمة، وأخص بالذكر منهم شيخي الحبيب الدكتور حيدر الغدير
حفظه الله بصحة وعافية، حيث قرأته عليه بتمامه، فكان بيدي إعجابه في
جله، ويصحح ما يرى تصحيحه، وأنا أسجل ملحوظاته القيمة، فجزاه الله
عني خيراً.

وأسأل الله تعالى أن يكتبه لي ذخراً، وأن يجعله عملاً مقبولاً يستنير به شباب الإسلام في كل زمان ومكان، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه:

أبو النصر عطار

في ولاية غازي عنتاب في تركيا، في يوم السبت ١٤٤٤/١١/٢٦ هـ، الموافق لـ ٢٠٢٢/٦/٢٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلى الله على عبده ومصطفاه، وبعد:

فهذه صفحات دونت فيها أهم الفوائد والخبرات الدعوية التي أكرمني الله بها، سواء أكانت مكتسبة من خبرة غيري أم تجاربي الشخصية، ولكن القاسم المشترك بينها أنها علمتني درساً دعوياً أحببت مشاركة إخواني وأخواتي فيه؛ ليسيروا على بصيرة فيما جربه غيرهم من الدعاة، وكما قيل: «ابدأ من حيث انتهى الآخرون».

وحاولت أن أوصل كل مسألة وفائدة من الكتاب والسنة الصحيحة قدر المستطاع، ولم آت بحديث ضعيف إلا في مواضع نادرة - والناذر لا حكم له - مع التنبيه على ضعفه، وذلك حينما أضطر إليه، ولم يسعفني في المعنى نفسه حديث صحيح، فالضعيف له أهميته الكبرى، ولا سيما في حالات ترى عمق دليلها الدعوي، فهب أن الحديث غير ثابت قط، فالحادثة بمجد ذاتها قاعدة جيدة ناضجة.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يكتب به النفع والرفع والفائدة، وأن يجعل هذا سبب النجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه:

أبو النصر عطار

في عينتاب مطلع شهر ذي القعدة ١٤٣٧ هـ



القاعدة الأولى

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن الدعوة إذا لم تعطها كلك، لن
تمنحك بعضها، فهي لا ترضى أن تقوم
على فتات الأوقات، ولا فضول الأموال.

من استعرض تاريخ الدعاة، ابتداء من الأنبياء والمرسلين فمن بعدهم وجد بوضوح أن كل داعية نجح في دعوته إنما أعطاها الحظ الأوفر من وقته، فسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام مثلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

وسيرة رسول الله ﷺ واضحة لمن تأمل وفكر، فقد أعطى ﷺ من وقته لدعوته القسط الأكبر حتى نجح، فليست الدعوة فقط أن يجلس الداعية في مجلسه ليأتي الناس إليه ويعظهم، إنما الدعوة تنوع الطرق والمسالك التي تؤدي للهدف.

ومن الناس من فهم أن الدعوة هي التدريس والوعظ، وهذا لعمر الله قد قرّم مفهوم الدعوة، وحكم على كاملها ببعض أجزائها، أجل؛ بعض الدعوة وعظ وإرشاد، ولكن أكثرها في غير هذا، فالناجح من الدعاة من يغشى الناس في أسواقهم، ويزورهم في بيوتهم، ويشاركهم في مآتمهم، ويضرب يده معهم إذا فرحوا، ولا يبتعد عن مناسباتهم، مجلسه مفتوح لمن أراد الزيارة، وله وقته المخصص لجواب السائل، كل هذا ضمن اتزان وتوازن، من غير

إخلال بالواجبات الأخرى، وحقوق الأهل والجيران والأقربين.

نعم؛ ببذله ﷺ كل ما يملك من وقت ومال وجهد وتضحية وإصرار وصل إلى ما وصل إليه من نجاح الدعوة، ما كان يرضى أن تفوته جنازة امرأة تنظف المسجد، شأنها في أعين الناس صغير، ولا يأبى إن طلبته الأمة ليحل لها عسراً، أو يفك لها معضلة.

وعكس هذا المثل سلوك بعض الناس في مجال الدعوة، ولديهم من المؤهلات العلمية ما يفي بالغرض، واشتهى كل واحد منهم أن يثمر في دعوته وأن يتقدم، ولكنه لم يعطها حقها من الوقت الكافي، بل جعلها تمشي على زوائد وقته، وفضول أعماله، فأخفقت دعوته.

ومتى كانت الدعوة بعد متع الدنيا، فكبر على نجاحها أربعاً، وإن شئت فسبعاً.

ولقد جرت سنة الله تعالى أن لا يتوصل إلى عوالي الجنة إلا الباذل، ولا يصل إليها متكئ على أريكته، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعَبْدَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]. وكذلك الدعوة إلى الله تأبى منك أن تعطيتها فضل مالك، وقليل وقتك، ومائعي شبابك ومتخلفيهم، وقل مثلها في الجهاد في سبيل الله، الذي لا يربح إذا كان بقليل من الأموال والتضحيات، مع توفير الأغلى والأنفس وادخاره.

ومن أهم ما يربي الداعي عليه نفسه وضع مسطرة يقيس بها بشكل دائم: كأن يفرض على نفسه أنه لا يضع رأسه على الوسادة يوماً إلا وقد قدم جزءاً من وقته في سبيل الدعوة، ويحدد لنفسه الوقت الكافي الذي يتناسب مع عمله وأعبائه.

ولا بد أن يرى إكرام الله وإمداده له إن بذل ما بوسعه من وقت وجهد
ومال ونفس ونفيس.

وهيهات هيهات أن نوفق في الدعوة، إن كانت قضيتنا آخر ما يفكر به،
بحيث جهزنا لأنفسنا أشهى المطعومات، وفرشنا البيت أفخر المفروشات،
وأكلنا تحت كل ضرس لوناً من الطعام.



القاعدة الثانية

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن البذل للدعوة من مال الداعية
 الخاص - قدر الاستطاعة - أنجح
 للدعوة وأقوى تأثيراً**

ومن عوامل القوة في دعوة الداعية، أن يبذل من ماله الخاص في سبيل الدعوة، فهو أنفع وأكثر تأثيراً من الداعية الذي لا يقدم شيئاً من ماله.

وقد حث القرآن على البذل في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

والنبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه قدما من مالهما الخاص في سبيل دعوتهم، وسافرا على راحلة لهم إلى المدينة يوم الهجرة من أجل دعوتهما، وكان زاد طريقهم من خاصتهم، وعثمان جهز جيش العسرة منه، وهكذا الحوادث والسَّير.

ولا يفهم من هذا الكلام أن تقاضي الأجرة فيه خدش في الكرامة أو النزول في دركات لا تحمد، وإلا فَمِنْ أَيْنَ يعيش مدرسو الجامعات، وكيف ينفق الإمام والخطيب وغيرهما من ذوي الوظائف الدينية الدعوية؟

ولكن الحديث متوجه نحو الأقوى تأثيراً، والأعلى رتبة، والأجدى نفعاً،

والأعمق أثراً، فلا والله لا يستوي أثراً من أنفق من ماله في سبيل الدعوة، ودعا الناس إلى الرشاد، ومن عرف الناس أنه في دعوته يؤدي وظيفة يتقاضى عليها الأجر، ولئن قلّ الناس أو فقدوا فسوف يحوّل من وظيفته أو تلغى.

إن الذي يخاطب الناس بقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٨] أوقع في النفس من غيره باتفاق، وفي كل خير وبركة.

وما أعمق الأثر عندما يرى المسلم أن أكثر العشرة المبشرين بالجنة كانوا من تجار الصحابة، وبعضهم من أكابر الأثرياء؟ وكم تندر رقعاء الإيمان بمواقف ليست موضع نكته ولا تندر، فعرضوا بالعالم الذي يتقاضى، والخطيب الذي يخشى أن يُقال من عمله، وما أقبح صورة الخطيب الذي يخطب الجمعة، ثم يتلّهي في المحراب ويطول في الحديث ريثما ينتهي حديث مَنْ وقف يحث الناس على الصدقة أجراً للخطيب؟ ثم تجمع الفلوس وتوضع في يد الشيخ الذي أدى خطبته؟؟ إنه الموقف السمج الذي لا أشك قيد أنملة أنه يسحب الدسم من كلام الخطيب والتأثير في الناس.

فمن استطاع أن يبذل في الدعوة من خالص ماله فيها ونعمت، ومن لم يستطع فنال أجراً على دعوته بكرامة وحفظ ماء الوجه فلا حرج، وليس بعد هذا مثقال حبة خردل من سماح، فإن الله لا يأذن أن تذلل الدعوة وأن يُتَنَدَّر بالدعاة على السنة الأشقياء.



القاعدة الثالثة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية الناجح من يقدم البدائل
 الدعوية لمن يدعو مباشرة**

وهذا منهج قرآني وإسلامي عظيم، فإن الله تعالى ما سد باباً إلا قد فتح مكانه باباً على الأقل، وربما فتح مكانه أبواباً كثيرة، فعلى سبيل المثال: حرم بعض البيوع وأحل الباقية جميعها، وحظر الزنى، وفسح باب الزواج الحلال، ومنع المسكر، وأحل كل مشروب لا يسكر ولا يؤذي، وهكذا.

فمن نجاح الداعية أن يؤمن البديل الصحيح، ومن الأمثلة المعاصرة وجود أناشيد الأفراح بدل الغناء الماجن.

وقد حصل مع بعض الدعاة عندما نهى قومه عن الأعراس الماجنة، والحفلات الصاخبة، التي هي مظنة الخمر، والمكان الخصب لما يتبع الغناء من اختلاط ومنكرات، - وكان هذا حاصلاً - فلم يأمرهم بالاجتماع لتلاوة القرآن الكريم في حفل الزفاف، لأن لديه بصيرة في الدعوة، إنما أرشدهم إلى فصل الرجال عن النساء، وأمن للرجال والنساء - كل على حدة - أناشيد أفراح مميزة تلائم الوقت والعصر، حتى إن الشباب الذين يحرصون على اللهو قالوا: والله ما نقصت سعادتنا ذرة عما كنا عليه، بل أصبح لدينا شعور ونشوة برضاء الله تعالى، بعد أن كان الضمير يتحرَّق بما نقترفه في الليالي الصاخبات.

وقس على هذا المباريات الرياضية، واجتماعات الفتيان.

وقس على هذا الميدان الأسري، فقد أمن المصطفى ﷺ هذا الجو للسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقد قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه، فيسربهن إلي فيلعبن معي»^(١).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب، فقال: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع، فقال: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قالت: فرس، قال: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قالت: جناحان، قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه^(٢).



(١) رواه البخاري برقم: ٦١٣٠، ومسلم برقم: ٢٤٤٠.

(٢) رواه أبو داود برقم: ٤٩٣٢، وابن حبان برقم: ٥٨٦٤، وقال محققه: «إسناده على شرط مسلم».

القاعدة الرابعة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية الحكيم من ينوع في أساليب
 الدعوة ولا يقتصر على نوع واحد**

وهذا الكلام له علاقة وطيدة في القاعدة التي قبل هذه القاعدة، حيث إن من حنكة الداعية أن يعطي كل زمان، ومكان، وفئة، وجوَّ حقه، فيحضر في العزاء ويدعو إلى الله من غير نكته، وإن كانت روح المداعبة تظهر على شخصيته، ويحضر في أوقات الصلاة وقد ترك النقاش الفقهي جانباً، وهناك درس دعوي عظيم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْنِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقد أخفق بعض المشتغلين بالدعوة عندما وجهوا دعوتهم ضمن مسار واحد، فمثلاً غلب على بعض الدعاة حب القرآن، فلا يكاد يجلس مجلساً إلا واشتغل بالقرآن وإن كان مجلس عرس، وليس هذا من هدي النبي ﷺ، فقد كان يعطي لكل مجلس ووقت وزمان وأشخاص حقهم.

وإن من مساوئ التلبس بالأسلوب الواحد لدى القدوة - وما أكثر مساويه - أنه يعطي الجواب أحياناً للسائل دون سؤال، كالولد الذي قال لوالده: إنك لن تأذن لي بتنظيف المسجد مع أصدقائي. علماً بأن الابن لم يسأل أباه أصلاً، ولكنه يعلم أن والده مجبول على المنع.

والأمثلة - على تنوع الأسلوب - في السنة والسيرة أوفر من أن تحصر،

ففي صحيح مسلم: قال سماك بن حرب لجابر بن سمرة رضي الله عنه: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ ^(١).

ويبدو لي أن للنبي ﷺ ملحظاً بعيداً في مجالسة الصحابة في هذه الساعة، وهي ساعة الرحمات وتقسيم الأرزاق، ومع ذلك، هم يأخذون في أمر الجاهلية ويضحكون، وهو معهم ﷺ يتبسم، وهذا الملحظ هو التنوع في الأساليب الدعوية، وعدم الاختصار على نمط واحد. وقد يدخل داع إلى مجلس فيه لهُو فينكر، ويسأل قائلاً: هل الأفضل تلاوة القرآن أو اللهُو؟

أقول: تلاوة القرآن في مكانها أفضل من غيرها، واللهُو في مكانه فيه خير كبير، ولا يصح فرض القرآن الكريم في مواضع اللهُو، وخذ هذا المثال من صحيح البخاري، فعن عائشة، أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ؟ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهْوُ» ^(٢).

فانظر إلى بصيرة النبي ﷺ الدعوية النفاذة، حيث إنه لم يقل لها هل كان معكم شيء من القرآن، لأن المقام مقام مرح وفرح، لا مقام تفكر وتدبر. وما نوع داعية ولا مرب في أسلوبه إلا نجاح، ولا اقتصر أحد على أسلوب واحد إلا تعثر، والناجح من يعطي لكل حالة تربوية قالباً، وقد لا يتكرر في حالة أخرى أبداً.

(١) رواه مسلم برقم: ٦٧٠.

(٢) رواه البخاري برقم: ٥١٦٢.

القاعدة الخامسة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية الناجح من يقسم وقته في
 اليوم واللييلة أقساماً، قسم للدعوة إلى
 الله تعالى حسب الحاجة الحاضرة،
 وقسم لأهله، وقسم لضييفه، وهكذا
 لكل واجب وقته**

إن شأن جميع الناجحين في التربية والدعوة أنهم ذوو توازن في صرف الوقت، ولهم الملاحظة العميقة في تقديم الأهم على المهم، والعاجل على ما يحتمل التأخير، والكي على الجزئي، والتوازن بين العام على الخاص.

سئلت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله - تعني: خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»^(١).

وأخطأ بعض الدعاة من أسرف بجانب على حساب آخر.

فمنهم الذي اكتفى بما حصله في بدايات طلبه للعلم، وما تزود ولا أخذ الجديد، وغاية أمره أن يملأ فراغ الوقت بالحديث الذي لا يكشف بهرجة عامة الناس.

ومنهم الذي انهمك مع الناس مثلاً ونسي بيته، وخيّل إليه أنه على خير وصواب، وأفيد منه الأبعد دون الأقارب، وفاض علمه على الناس دون أهل

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٦.

البيت، ناسياً أو متجاهلاً حديث النبي ﷺ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَلَأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

ومنهم الذي انكفأ على أهله وأسرته ونسي الدعوة إلى الله في الاختلاط المحدود بالناس، وهذا لا يقل خطورة عن أخيه الأنف، حيث إن الناس لحتاج إلى علمه وأدبه وما ورثه عن العلماء كاحتياجهم إلى الطعام والشراب، وما ورثه الله العلم لينكفئ على نفسه وأسرته ويترك الناس هملاً.

بئس الطبيب من درس الطب ليتداوى ويداوي أسرته فحسب، فكيف بوارث رسول الله ﷺ؟

أي والله: إن خير الهدي هدي رسول الله ﷺ، فقد كان إذا خلا بربه جعل العبادة له، ولم يلتفت إلى زوجه النائمة بجانبه، وإذا خرج إلى أصحابه كان المعلم والهادي، ومتى جاءه الوفد تفرغ إليهم، وإذا أمسى المساء سمر مع أصحابه في أمور المسلمين، كما كان يمر على زوجاته الطاهرات واحدة واحدة ويؤنسنهن ويسمع منهن ويسمعهن، وربما اجتمعت نساؤه في بيت واحد وسهر معهن، وإذا قصده المتخاصمان حل لهما النزاع، لكنه لم يغفل عن طفل أو سبط في النزاع، ولا في اللهو.

وأختم بكلمة عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حيث قال: قال

(١) أخرجه البخاري برقم: ٨٩٣، ومسلم برقم: ١٨٢٩.

لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟»،
فقلت: بلى يا رسول الله قال: «فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ
عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرَوْحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ
عَلَيْكَ حَقًّا...»^(١).

إن من رام الدعوة المتوازنة اقتدى بخير من دعا وهدى ﷺ، فقد كان يومه
مقسماً على أقسام، ولكل قسم أعماله وأشخاصه.



(١) أخرجه البخاري برقم: ١٩٧٥، ومسلم برقم: ١١٥٩.

القاعدة السادسة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن على الداعية أن يُعنى ببيتته
وأولاده، فمن أخطر الأمراض أن يُشغل
عنهم بدعوى الانهماك بالدعوة وضيق
الوقت.

قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

إن من أهم المهمات في بيوت الدعاة أن تكون أسرة الداعية وذووه أول مستفيد منه، وكثر التفلت والتحلل في صفوف ذوي الدعاة في هذا الزمان، حتى إنه قد تجد - ولو على ندرة - من اهتدى على يديه الكثير، ونفع الله به القاصي والداني، وأولاده وأقرباؤه من أشد الناس بعداً عن الالتزام والهدي النبوي، ولو فتشت لوجدت أن انشغال الداعية هو من أهم أسباب عدم انتفاع ذويه به، وقد يكون سبباً في بعدهم عن الالتزام، وقد تكون هناك أسباب أخرى.

والملاحظة هنا التي أحب التنبيه عليها: هي لفت أنظار الدعاة للعناية ببيوتهم، لكن الهداية من الله، فقد يستجيب الولد وقد يصد، وقد ينفع الله أهل الداعية به، وقد لا ينتفع منه أحد.

والدليل من الهدي النبوي يشرح هذا بجلاء، فقد حرص رسول الله ﷺ على هداية عمه أبي طالب حتى آخر لحظة في حياة أبي طالب، ففي

الصحيحين: قال المسيب بن حَزَن رضي الله عنه: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا سَتُغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]^(١).

والشاهد في هذا الحديث أن أبا طالب لم يسلم في نهاية السعي، وإن سيد الدعاة ﷺ قد أدى ما عليه من الأمانة على أحسن وجه تجاهه، لكن الهداية من الله تعالى، فحيث لم يستجب أبو طالب فليس هذا بيد النبي ﷺ، وقد انتهت مهمته هنا، وبقي أمر الهداية الذي هو بيد الله، وكذلك ما يجب أن يكون الداعية عليه، فهو يقدم ما عنده، ويكل أمر الهداية إلى بارئه القائل لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].



(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٦٠ واللفظ له، ومسلم برقم: ٢٤.

القاعدة السابعة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أنني قد أجد فيمن يمارس الدعوة
غفلةً عن أمور بدهيات، ولا سيما في
شخصه وأسرته، فما موقفي إلا التقرب
والنصح والتذكير

حدثني صديق لي قال: دخل مكتبي رجل من أفاضل العلماء، ومعه بنت متبرجة، فلفت انتباهي تبرج البنت مع الشيخ، وحاولت أن أسكت فما استطعت، وعندما انتهى الشيخ من شراء الكتب وجاملني ببعض الكلمات قلت له: يا دكتور: الدين النصيحة، وإنني والله ليعز علي أن أرى بنتك متبرجة هكذا وأنت من أنت علماً وفهماً ودعوة! فما كان من الشيخ إلا أن قال لصديقي: أتدري كم عمر الفتاة؟ عمرها اثنتا عشرة سنة! اندهش صديقي من مقولته، وراجعته مستنكراً: يا دكتور: أمتأكد أنت مما تقول؟ قال: نعم والله، رد صديقي: لكن الظاهر عليها أنها بنت سبع عشرة سنة، إذا بالعالم يقول له: لكنك لفت انتباهي إلى أمر مهم، وهي أن من لا يعرف عمر البنت يظن أنها بالغة وهي متبرجة، إذاً سأسعى إلى حجابها.

فالواجب في الدعوة إلى الله تعالى أن لا يوفر الداعي أي نصح متاح، بدعوى أن المنصوح مما لا يغفل عن مخالفة بدهية، لأن الواجب علي أن أشد من أزر أخي، فليست المسألة واقفة عند حدود المعرفة فقط، فربما عرف أخي

وضعت نفسه، وربما لم يتنبه إلى بدهية من البدهيات مع سعة علمه، وقد تكون له وجهة نظر مبررة، فإذا سمع وجهة النظر الأخرى غير مساره وحوله. أما أدلتها من السنة فلا يكاد ينقضي عجي من بعض الأدلة التي فيها تنبيهات من النبي ﷺ لبعض أصحابه، فمن ذلك: أنه أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن يوماً، ليدعو الناس إلى التوحيد، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويعلمهم أصول دينهم، أيعقل مثل هذا القدوة أن يغفل عن أمور بديهة في تعامله مع الناس، اسمع الوصية النبوية: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

قد يتساءل المرء: كيف يحث النبي ﷺ معاذاً على اتقاء دعوة المظلوم؟ أيعقل لهذا الداعية الأكبر، ومندوب رسول الله ﷺ، والناطق الرسمي باسمه الشريف، ومن سيعلم الناس ويبلغهم عن الله، أيعقل لهذا أن يغفل عن مسألة من المسائل التي يتنبه لها صغار الطلبة، وهي مسألة الظلم، ودعوة المظلوم؟

أجل؛ قد يغفل الكبير عن مسألة صغيرة، ويحتاج للتذكير وإن كان عالماً، كما قد تجد فائدة طبية في حبة صغيرة وليست تلك المنفعة في قدر كبير من الطعام.

(١) رواه البخاري برقم: ١٤٩٦، ومسلم برقم: ١٩.

القاعدة الثامنة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن للشيطان مداخلَ يدخل بها على
طالب العلم والداعية قد لا يدخل منها
على غيره.

إن للشيطان مداخل متنوعة يدخل من خلالها على ابن آدم، فالتطريق المسلوك للدخول على العالم يختلف في غالب الأحيان عن الطريق الذي يأتيه مع العامي، ومن مداخله الخاصة بأهل العلم بل هي من أخطر الأمراض التي تصيبه مرض: «غرور الطاعة والالتزام والعلم» وكم وكم في أهل العلم من زلت قدمه بسبب غروره بعلمه، وعلى العكس كم ترى في العامة من تواضع وانخفاض وانكسرت نفسه بسبب الجهل والمعصية، وتراه يقول بكل تواضع: أنتم أهل العلم وأنا من الجهال، علموني مما علمكم الله.

ألا فليحذر الداعية على نفسه من السقوط في هوة الغرور بالعلم والمعرفة والالتزام، فهي نعم من الله إما أن ترفعه إذا أحسن أخذها، وإما أن تكون سبباً في هلاكه.

ومن هنا يقول البوصيري (ت: ٦٩٦) رحمه الله في قصيدة «البردة»:

وَإِخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ فَرُبَّ مُحْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ الثَّخَمِ^(١)

(١) من قصيدته المسماة بالبردة.

ويقول ابن عطاء الله السكندري (ت: ٧٠٩) رحمه الله: «رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً»^(١).

يقول الأديب الكبير سعدي الشيرازي (ت: ٧٢٧ هـ) رحمه الله: لا أزال أذكر أنني كنت في عهد طفولتي مولعاً بإحياء الأسحار، زاهداً متقياً، وفي ذات ليلة قعدت لخدمة أبي، والمصحف الشريف في حجري، أقرأ منه ما شاء الله أن أقرأ، ولم ينطبق لي جفن على جفن، وكان الجماعة الذين أتوا للسهر عندنا قد غرقوا بنومهم.

فقلت لأبي: إن واحداً من هؤلاء لم يرفع رأسه ولم يتجهد بركعتين، ولقد استغرقوا في نومهم فكأنما هم أموات !! فقال لي: يا روح أيبك ! أنت أيضاً لو أنك نمت لكان خيراً لك من أن تمزق جلود خلق الله»^(٢).

أفلا ترى كيف يغوي الشيطان بعض الأتقياء، فلم يأت إلى متجهد ليطلب منه شرب الخمر، ولا لترك المصحف والذهاب للزنى، ولكنه أغواه بنظرة الإعجاب إلى نفسه، وهذا من دهاeliz الشيطان وخبثه، بحيث يغوي كل واحد بما يصلح له.

وكم جاء الشيطان لأحدنا بالآية القرآنية، فيراه منهمكاً في العبادة، فيذكره بقوله تعالى: لنبيه ﷺ: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢] أجل والله، لقد صدق الله بقوله: ولكن هل وصل العابد منا إلى حد بالغ فيه في العبادة لينهى عن المبالغة؟ أم هل استعمل الآية لهذا المعنى؟ وهكذا يكون

(١) من الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري.

(٢) روضة الورد لسعدي الشيرازي ص ١٠٢، ترجمة: محمد الفراقي.

تلبيس إبليس والعياذ بالله.

وما أقبح الجهل في الدعاة، والغفلة في الوعاظ، إذا كانت في لوحات الله القرآنية، وتنبيهات الملك التحذيرية، فما أكثر طرق الشيطان! وما أعجب غفلة ابن آدم عن إدراكها! ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].



القاعدة التاسعة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أَنْ بَعْضُ مَنْ يَدْعِي الْعِلْمَ وَأَبْوَابَ
 الْبَيَانِ يَدْخُلُونَ النَّاسَ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ
 يَكْبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**

تعلمت هذه القاعدة من سيدنا عمر رضي الله عنه لما قال وهو يخاطب الناس:
 سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلِّ مُنَافِقٍ
 عَلِيمِ اللِّسَانِ»^(١).

لقد رأيت في مسيرتي الدعوية عدداً من أهل الفصاحة والبلاغة قد أوتي
 الأثر والتأثير في الناس، وتحول الناس بوعظه من حال إلى حال، واهتدى قوم
 بكلامه، وهو منافق عليم اللسان، فصيح الخطاب، قليل الالتزام، عديم
 التقوى، علمه حجة عليه، لم يزد العلم إلا بعداً عن الله، اتجر بعلمه، وأكل
 من فصاحة لسانه، وسوغ لنفسه المحرمات بأغطية مزورة، وامتنع كثير من
 أتقياء العوام عن الكلام بظاهر فسقه بدعوى أنه من أهل العلم والتقوى.

لم يفعل كبيرة قط إلا تحت غطاء وفتوى شرعية:

- فينافق للحاكم تحت غطاء: كيف أنصح الحاكم إذا لم أقرب منه،
 وأتودد إليه، وألن له الخطاب؟

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم: ٣١٠، وهو حديث صحيح.

- ويأكل أموال الناس بالباطل، وهو يبرره بأنه من العاملين عليها.

- ويكثر الكذب في كلامه بشكل فظيع، لأنه ينظر إليه على أنه الوسيلة المؤثرة في الناس، والمقصود هداية الناس، وكذب والله؛ فإن أكبر همه أن يجلب أنظار الناس إليه، وأن يسحب شغاف قلوبهم نحوه.

- ديدنه الخط على العلماء والصلحاء، بدعوى أنهم لا تأثير لهم.

وهكذا دواليك، وإيم الله لم يبن في الإسلام بقدر ما خرب، ولم يصدق عباد الله بحجم ما كذب وكذب، دماره أكبر من عماره، وهدمه أوسع من بنيانه، قد حاز الدنيا بكل أصنافها، وبلغ المناصب أعلى شأوها، وكسب الدنيا من حساب الدين.

عجبي من أناس اهتموا على يده، وشدهم إلى الإسلام عذب حديثه، لكنهم صلحوا من طرف وفسدوا من آخر، كان أحدهم فاجراً مسرفاً على نفسه لا يلتفت إلى غيره، فأصبح من المصلين الذين لا يعرف طعاماً كل يوم أكثر من لحوم العلماء والصالحين، وقد أثرت فيه تربية شيخه الضال، نفعاً في طرف، وشللاً في آخر.

تُرى! ألم يتخرج بعض حفاظ القرآن من مدرسة هذا الزنيم؟ ألا ترى بعض الدعاة الذين سلخوا على يده وكانت بدايتهم عنده ثم انشقوا عنه وفارقوه؟ أما له نفع ولو يبيع بعض الأطراف دون الأخرى؟ فما حال هذا الدعوي الذي أثر في الناس وما تأثر؟ وحسن حالهم وهو يتقهقر؟

إن مثل الداعي السيء الذي يوصل الناس إلى الجنة ولا يدخلها كمثل

الدابة التي يركب عليها الوجيه والتقي، وتوصله إلى أعلى الأماكن وأشرف المناصب، لكن الدابة تربط في إصطبل الدواب ولا تدخل قاعة المؤتمرات.

قيل لسيدنا أسامة بن زيد: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه، ولا أقول لأحد، يكون علي أميرا: إنه خير الناس بعد ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فَلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(١).

رحم الله الإمام الشافعي إذ قال: «ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع»^(٢).

ورحم الله ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) إذ يقول: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق»^(٣).



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٦٧، ومسلم برقم: ٢٩٨٩.

(٢) «حلية الأولياء» ٩: ١٢٣.

(٣) الفوائد ص: ٦١.

القاعدة العاشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أنني إذا أردت أن أدعو عاصياً أن أبدأ
بأخطر ما عنده من المعاصي وأسكت
عن الأصغر حتى تتم معالجة الأخطر

وهذا تشخيص مهم يجب أن يبدأ به الداعية، فإن لم يفعله فدعوته لا بد أن تخفق، وإلا فقل لي بربك: ما فائدة شخص دَعَوْتُهُ للالتزام بدخول المسجد بالرجل اليمنى، وهو ممن إذا غضب شتم الخالق؟

وإلى هذا السلم الدعوي في التدرج أرشد المصطفى ﷺ عندما بعث معاذاً إلى اليمن، فقال: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(١).

وبصريح الحديث هنا لم يرض النبي ﷺ المبادرة بدعوتهم إلى الأمر التالي حتى يتجاوزوا السابق، وإلا فما فائدة دعوتهم إلى الزكاة وهم لم يسلموا؟

ومن الأخطاء الشائعة عند بعض الدعاة أن يلتزم بالدعوة إلى أمر معين حيثما دعا أو ذكر، سواء أكان أمام داعية أو رجل سوقة أو عاص بعيد، فهو لا يشخص أمراض المدعوين أصلاً، ولا يراعي أحوالهم واحتياجاتهم، وأعرف

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٩٥، ومسلم برقم: ١٩.

شخصاً كلما حضر في مسجد على مدى سنين طويلة، استأذن الإمام بالكلام وجعل يتكلم عن أهمية إصاق القدم بالقدم بالصلاة، دون أي التفات إلى حال المصلين، فربما في المصلين العلماء، وربما فيهم من الأعاجم من لا يحسن آية في الفاتحة.

لو عكست في أدوية المرضى لأهلكتهم، ولو تناول مريض السرطان حبوب القلب لهلك، وكذا لو أخذ مريض دوران الرأس علاج البواسير لضره، العكس في أدوية مرضى الجسد قد تقتل وقد تزيد في العطب ولكنها لن تفيد قطعاً، فكيف بترياق الدعوة؟ أيجوز أن تأمر العاصي بما تأمر به الناشط في العبادة؟ أم يعقل أن تصف للباحث عن التفاني، المتحرق في الالتزام بما تصفه لمن تتدرج معه في الدعوة؟

ومن حكمة بعض الدعاة أنه كان يستجر الجالسين من العوام إلى تلاوة الفاتحة وتصحيحها، وذلك ببيان مسألة العناية بسورة الفاتحة لتصح الصلاة، فحيث سمع من أحدهم خطأ صححه، وإلا مشى.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «... ومن هؤلاء المشايخ من نسي أن الدين بني على خمس: هي الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج، ويتخذ لنفسه أصولاً يبدأ الشبان بها ويبذل أكبر جهده في سبيلها، وقد تكون من فروع الفروع، كمن يأتيه الشاب الذي يجهل ما هو الإسلام فيعلمه أوراًداً معينة من أوراد الطريقة قبل أن يعلمه أحكام الطهارة والصلاة، أو يلزمه بتطويل لحيته قبل تصحيح عقيدته، فيظن أن اللحية هي عماد الدين، فإذا طولها فسخر منه رفاقه أو ناله بالأذى مجتمعه فحلّقها ظن أنه خرج من

الإسلام بهدم عموده فترك الصلاة وأتى المحرمات»^(١).

فدعوة الداعي إنما تبني وتوجه لأخطر الأمراض وأشدها قبحاً عند الله، ولا يعطى المدعو أموراً كثيرة تشتتته، ولكن يقتصر على الأهم والأكبر والأعظم، ثم يتدرج معه من حيث مستواه.



(١) فصول في الدعوة والإصلاح ص ٦٣.

القاعدة الحادية عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أنه كلما زاد علم الداعية قل إنكاره
واعترضه.

عندما يتسلح الإنسان بالعلم والاطلاع على المذاهب والآراء الأخرى يقل اعتراضه على من يخالفه، وقل عكسها في عكسها، بحيث يكثر الاعتراض إذا اقتصر على مذهبه وما يرى من رأي، ويزيد إنكاره على الآخرين.

وقد حضرت في عدد من المناسبات يقسو فيها الناصح والداعي على من يخالفه، ولو أنه اطلع على وجهة النظر الأخرى لقلَّ اعتراضه، وخف غضبه، ولاقتنع أن لما ينكر من منكر مبرراً، وأن لغيره وجهة محترمة، وأن الله تعالى إنما أراد منا الاختلاف في الفروع، كما أراد أن تتعدد وجهات النظر، وذلك من الحكمة الإلهية كي لا يضيق الأمر على الأمة المحمدية.

حدثني خالي الأستاذ عاطف بيانوني حفظه الله، قال: جاءت امرأة من سفر بري وقد سترت وجهها بالنقاب، فما كادت أن تصل إلى البلد الأخرى حتى أغمي عليها، فأخذ الخبر رجل وأوصله إلى أحد علماء الحديث النبوي، فكان رد الشيخ بكل جفوة وشماتة: «هذا جزاء الحمارة التي غطت وجهها، ومن الذي طلب منها غطاء الوجه؟».

فقلت للشيخ عاطف: لو أن راداً رد عليه بقوله: هب أن رسول الله ﷺ جاء من هذا السفر نفسه، إلى هذا المكان أيضاً، ومعه عائشة أم المؤمنين أو فاطمة بنته، وكلاهما كانتا من ذوات النقاب: أكان عقلك يتصور مثل هذا الكلام السخيف؟

ألم يخطر ببال هذا العالم قبل أن يتفوه بما تفوه به أن نقاب الوجه هو مذهب السادة الحنابلة، ومتأخري أصحاب الشافعي، حيث إن كليهما يرى وجوب تغطية وجه المرأة؟ أم أن الرجل على علم بهذا وقد غلبه هواه، فلم يعد يرى حقاً إلا ما ذهب إليه؟

ومثله قل فيمن سَفَّه رأي من قنت في صلاة الفجر، وقال بكل شدة وحماسة: هي بدعة هي بدعة قبيحة!! وكأنه تعامى عن أنه رأي الإمام القرشي محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) رحمه الله، ولو صلى الشافعي في المسجد نفسه إماماً لقنت في صلاة الفجر!!

ألا ترى معي - أيها القارئ الكريم - أن عدم الاطلاع على الرأي المخالف وقلة العلم كانت سبباً في الاعتراض، بل الحق في الاعتراض؟

وهذا على احتمال حسن الظن بأن المعارض لم يطلع على الرأي الآخر بحيثياته، أما إن كان قد اطلع وضاق صدره عن تقبل وجهة النظر الأخرى، فهذه حالة مرضية أخرى تستحق الوقوف والتأمل والعلاج.

فلا علاج لسعة الصدر أنجع من الازدياد والغوص في العلم، فكثرة الاطلاع والتزود تورث قلة الاعتراض، وسعة الصدر للمخالف تمنح صاحبها جائزة كبرى، ألا وهي معرفة عظمة الدين واتساعه للناس.

القاعدة الثانية عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية البصير من يأخذ نفسه
 بأشد العزائم، ويرضى من الناس
 بأوسع الرخص**

هذه القاعدة نقلها لي شيخي الجليل الشيخ صلاح الدين الإدلبي حفظه الله، عن الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري (ت: ١٤١٣ هـ) رحمه الله تعالى، أنه قالها.

وهي قاعدة مهمة، أضيف عليها في آخرها: «إن احتاج الأمر»، وهذا هو مقصود الأستاذ الأميري رحمه الله، ولا إخاله ولا غيره يمدح من ينتقي للناس الرخص انتقاء، إنما هو فقه في الدعوة، بحيث يلتبس الداعي للناس الرخص عند حاجتهم إلى ذلك، ويرضى منهم ذلك، أما هو فكذلك عند الحاجة، وإلا فلورضى لنفسه الرخص دائماً لوقع في محظورين:

الأول: أنه موضع قدوة، ولا يليق به الأخذ بالرخص لاقتداء الناس به.

الثاني: أنه هو العالم بالرخص، فإن أخذ نفسه بها فإنه سيجمع الرخص الكثيرة، أما غير العالم، فستكون فيه رخصة أو رخص قليلة.

وفي فتوى النبي ﷺ في الحج لأصحابه، وكان ما سئل عن شيء قدم ولا

آخر إلا قال: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**»^(١) درس عظيم في تأصيل هذه القاعدة، حيث إن النبي ﷺ يلتزم الرخص لأصحابه ويعطيهم الأيسر في العمل، وهو ملتزم بالأكمل والأحسن، ويشبهها حادثة الصيام لما واصل رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك الناس فواصلوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم، وقال: «**إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي فَيُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»^(٢).

وقريب منها قول عبد الله بن عمرو ؓ: أخبر رسول الله ﷺ، أني أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي قال: «**فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَتُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامٌ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ**»، فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي ﷺ: «**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**»^(٣).

والأحاديث في هذا كثيرة وفيرة.

فالداعية يأخذ بالعزائم ويشدد على نفسه لأنه موضع القدوة، وطالبُ الأحسن والأرفع عند الله، مع الترخص للناس والتماس الأسهل لهم كي يحبهم في الدين، ويحل لهم المشكلات.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٨٣، ومسلم برقم: ١٣٠٦.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ٧٤٣٧، والحديث صحيح.

(٣) الحديث متفق عليه، وهذا لفظ البخاري برقم: ١٩٧٦، ومسلم برقم: ١١٥٩.

بقي تنبيهان أخيران:

الأول: الأخذ بالعزيمة قوة وبسالة بشرط أن لا يصل الأمر إلى حد مشادة الدين، لأنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

الثاني: انتقاء الرخص للناس حسن على أن لا يبلغ حد الميوعة، فإن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن الإثم إثم، وليس هو موضع مدح.



القاعدة الثالثة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن دعوة أنصاف العلماء أصعب على
الروح والقلب والجسد من قرية من العوام

حدثني شيخنا الشيخ عبد المعز بن محمد الحامد الحموي حفظه الله، قال: لما أراد والدي الشيخ محمد الحامد (ت: ١٣٨٩ هـ) رحمه الله الذهاب إلى حلب، ودعه أخوه شاعر العاصي الأستاذ بدر الدين (ت: ١٣٨١ هـ)، في محطة القطار المتوجه إلى حلب، وقال له: أعوذ بالله من نصف عالم، إشارة إلى أنه يريده: إما عالم، أو لا.

ويبدو أن هذا الرجل ذو بصر بعيد، وبصيرة ثاقبة، وتجربة عميقة، وقد لمست بيدي عشرات الأمثلة من خريجي مدارس العلم الشرعي والجامعات، من أنصاف وأرباع وأثلاث المتعلمين، ممن يصدق عليهم قول القائل: «دخلت الجامعة جاهلاً متواضعاً، وخرجت منها جاهلاً مغروراً»، لقد كان كل واحد من هؤلاء قبل الدراسة ونيل الشهادة جاهلاً متواضعاً يسأل بتواضع، ولا يستحي أن يقول: «علموني مما علمكم الله فإني لا أدري» وبقي بعد التخرج جاهلاً لكن نفسه تقول له: أنت حامل للشهادة الشرعية، ويكفيك من العلم ما قد حصلت عليه.

وما أكثر هذا لدى طلبة العلم الذين يدرسون قبل الامتحان أسئلة السنوات الماضية، وما هو المتوقع أن يأتي به المدرس في الامتحان، ويهملون

أكثر من نصف المقرر الذي يبعد الامتحان به، ثم المقرر يلخصه أحد الطلبة، ويحفظ الطالب الفقرات المعدودة، ويأتي بالشرح من عند نفسه، ولئن كان ممن حضر الدروس والمحاضرات لا أدري إن كان عقله حاضراً أو غائباً.

وحصل أن قصدت رجلاً يكثر من الأحاديث المكذوبة كثرة مخيفة، لأنصحته بالتحقق من الأحاديث قبل نشرها، وذكرت له مثلاً أتى به وقد حكم الحفاظ على الحديث بالوضع، منهم ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ) والسخاوي (ت: ٩٠٢ هـ) وغيرهما، إذا به يقطع الحديث عند مطلع حروف حديثي، ويذكر لي أقوال العلماء في إيراد الحديث الضعيف، ومن الذي ألف فيه، فصبرت عليه طويلاً حتى أنهى كلامه، فقلت: يا سيدي كلامك رائع في الحديث الضعيف، لكن كلامي عن الحديث المكذوب، فلف ودار مرة أخرى، ثم جدت كلامي، فكرر السير في الطريق الحلزوني المستدير، حتى أنهى الجلسة وطلب من الحاضرين الخروج، فقلت لإخواني من أهل العلم معي: لو نصحت عامياً من سوقة المسلمين وبينت له كلام علماء الحديث بوضع حديث أورده لاستجاب وشكر، أو على الأقل قال: سأسأل شيوخنا الآخرين، أما أن يكابر المرء بهذه الصورة، فأمر عجيب لا يأتي إلا من أنصاف وأرباع المتعلمين، والله المستعان، وصدق من قال: «حجاب العلم أشد من حجاب الجهل».

وأختم الحديث بكلمة للإمام ابن تيمية رحمه الله، فقد قال: «إنما يفسد الناس نصف متكلم، ونصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب، هذا يفسد

الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان»^(١).
 فاحرص على دعوة الجاهل، وتذكير العلماء، ولا تهمل أنصاف العلماء
 ومدعي العلم، ولكن وطن نفسك فربما كانت نتيجة دعوتك مع الصنف
 الأخير، كالنبي الذي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد.



(١) «الرد على البكري» ٢: ٢٧٣.

القاعدة الرابعة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن من أكبر المخففين في الدعوة هم
 الذين يدعون بالكلام دون العمل،
 ويطلبون من الناس العمل**

لقد صدق من قال: «إذا كنت إمامي، فكن أمامي»، وقد قال تعالى حكاية عن عباد الرحمن أنهم قالوا: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وكما قيل: «دعوة المترف إلى التشفيع دعوة ساقطة، ودعوة الكذوب إلى الصدق دعوة مضحكة، ودعوة المنحرف إلى الاستقامة دعوة مخجلة»^(١).

وما أقبح الموقف الذي حدثت عن أحد طلاب العلم الشرعي إذ يقول: إن أساتذتنا في المدرسة يحثوننا على صلاة الجماعة، لكنَّ عدداً منهم يخرج أمامنا من المدرسة بعد الأذان وقبل الإقامة.

ولقد كان من هدي النبي ﷺ أنه لا يطلب من المؤمنين أمراً إلا كان أمامهم وفي مقدمتهم في العمل، اللهم إلا ما كان من الخصائص النبوية، التي ينفرد النبي ﷺ عن الأمة بها، كالنهي عن الوصال في الصوم وواصل هو ﷺ، والنهي عن الزواج فوق أربع نسوة إلا هو ﷺ وغيرها.

(١) هذه الكلمات الرائعة سمعتها من أستاذنا الأستاذ محمد راتب النابلسي، ولا أدري أي من كلامه أو نقلها عن غيره، فالله يجزي قائلها خيراً.

وهذا الاستثناء غير موجود بعد رسول الله ﷺ، فما من أحد من دعائنا المعاصرين إلا هو مكلف كباقي أمته تماماً، ولا توجد خصائص لأحد دون الأمة.

وما أحسن العمل أمام الناس، وإيجاد القدوة الفعلية التي تقود الناس قبل الطلب باللسان، ألم يَخْلُقْ النبي ﷺ أمام أصحابه يوم الحديبية، فقاموا وحلقوا؟ أليس النبي ﷺ أقرب الناس إلى العدو عند احتدام الصف واحمرار الحديق؟ ألم يكن الأسوة أمامهم في قيام الليل؟ أليس جوعه باد أمامهم، فما ربطوا حجراً على بطونهم إلا وهم يرون أنه قد ربط حجرتين؟ أرضي أن يأكل طعام جابر دون أن يشرك أصحاب الخندق أجمعين؟ ألم يروا كيف يستدين على نفسه إن لم يجد ما ينفق قبل أن يطلب من أحدهم الصدقة؟

لقد ضحى قبل تضحياتهم، وتعب أكثر منهم، وصلى أمامهم أكثر، وكان قدوتهم في الصوم، وفي كل أمر من أمور الدنيا.

بخ بخ لمن قدم الأنموذج العملي قبل القولي، والمثال الفعلي قبل كل كلام، وتعباً لمن طالب بالحسنى وهو عنها بعيد، وحث على البر وهو في السفاسف شريد.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

القاعدة الخامسة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن من يسكت عن الدعوة خير من الذي
يدعو على غير بصيرة، فالذي يدعو
على غير بصيرة قد يهدم أكثر مما يبني

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

لقد حصل أن بعض المتحمسين للدين ممن لا بصيرة لهم في الدعوة حث بعض الشباب على صلاة السنة، فكره المدعو الصلاة من أصلها ونفر من صورة الدين المشوه الذي وصلت إليه من خلال دعوة هذا.

ومثله تماماً ما كان من بعض المتصدرات للدعوة على غير بصيرة أنها أرادت أن تحبب النساء من حولها في جزئية من جزئيات الحجاب فسمعتها امرأة محجبة أصلاً، وقالت: لو كنت سافرة غير محجبة، وأرادت هذه أن تعرفني بالحجاب لما كان جوابي إلا رفض الحجاب أصلاً، ولما ازددت من الله إلا بعداً.

وهنا السؤال: هل بالضرورة أن تكون هذه المرأة التي تدعو سيئة؟ أقول: بل على العكس، هي مؤمنة تشتعل حماساً للدين، طالبة لرضاء الله تعالى، لكنها تفتقر إلى البصيرة التي أخبر الله تعالى عنها، وهي تشتمل على أمور

كثيرة: منها العلم بالمدعو إليه، وصحة المعلومات، والأسلوب الصحيح في الموعظة، وغيرها من الأمور.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: أصاب رجلاً جرح في عهد رسول الله ﷺ، ثم احتلم فأمر بالاعتسال فاغتسل فمات، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»^(١).

والأمر الذي أزعج الحبيب ﷺ هنا هو الدعوة على غير بصيرة، والفتيا دون فقه، وقد فقد رجلاً من أصحابه بسبب الدعوة من غير علم، فهلا تركوا الفتيا إذ لم يعلموا!.

وأقولها وقلبي يعتصر ألماً: كم من مدرسي المدارس الشرعية من زهد الطالب بطلب العلم، وهو يتكلم عن أهمية العلم! أجل والله. وكم ممن بغض العلم وأهله، وشوّه سيرة الرسول الله ﷺ من سوء عرضه، وقلبه مطمئن بالإيمان خائف من ربه.

فمن ملك البصيرة فليدع إلى الله، ومن ترك الدعوة خير من الذي دعا على غير البصيرة والهدى، أولئك الهدّامون، والعياذ بالله.



(١) رواه أبو داود برقم: ٣٣٧، والحديث حسن.

القاعدة السادسة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن من أفدح أخطاء الداعية أن يدخل
 العوام في الاختلاف بينه وبين العلماء**

وهذا لأمر يتعلق بالبصيرة التي تحدث عنها آنفاً، فمن البصيرة في الدعوة أن يقتصر العالم في الاختلافات العلمية على أهل العلم، وألا يدخل العامة في هذه الممعة العلمية.

وحصل في تاريخنا مآس من تحرك أخلاط الناس ضد العلماء والدعاة ما يندى له جبين الفضيلة، وحصلت تصرفات وندت كلمات يخجل منها الوقور، ولعل من الأسباب الرئيسة في هذا أن القدوة لم يكف العامي عن سفاهته وتحركه، والأنكى أن تكون هذه المواقف المخزية بإيعاز من العالم عند الاختلاف مع صنوه في مسألة من مسائل العلم والدعوة، أو اجتهاد من الاجتهادات الشرعية.

والخلق النبيل، بل البصيرة الحق في الدعوة عندما يأمر كل عالم وداعية العوام وأنصاف المتعلمين الكف عما شجر بين العلماء من اختلافات علمية، ويبين للعوام أن دورهم الحياد إن لم يستطيعوا الإصلاح والبناء.

ولكن هيهات! كيف تطالب أن يكون سوقة الناس على الحياد! إذا كانوا متلقين من شيوخ عقولهم ضيقة، وما حرضهم على الانتصار لفكرتهم

إلا قدوتهم، ويلقون جلباب الانتصار لله ورسوله فوق آرائهم، فيتحمس الجاهل تحمساً يحسب نفسه أنه على خير، ولا والله: أترأه هو الأجهل أم من يوجهه؟

إذا لم يع الدعاء الاختلاف الفقهي، والاختلاف في دائرة وأسرة أهل السنة والجماعة فكيف يفهمه التلميذ والجاهل؟

ورأيت بعيني من تدنى في دركات الشيطان حتى إنه ليحرض الأجهزة الأمنية على إخوانه المختلف معهم، ولا سيما على صعيد الاختلاف الصوفي والسلفي في عصرنا من كلا الطرفين، فضلاً عن تهيج العامة، وأصبح عامي من العوام يخرج من رأسه السباب والشتم وأقذع الألفاظ في حق علماء الطرف الآخر، بل وأحكام الجنة والنار، والهدى والضلال، والنجاة والهلاك، وإلى الله الشكوى.

ولله در أهل التزكية، الذين ديدنهم إشاعة محبة العلماء، وحسن الظن بجميع الدعوة، وإفشاء مقولة: شيخك كالوالد، وسائر العلماء الآخرين كالأعمام، فأنت توافق والدك على ما ذهب إليه، وتحترم رأي أعمامك، وتضع وجهة نظرهم في مكانة الاحترام والتبجيل، وما من مسلم إلا وهو يريد الله والدار الآخرة، ومن شر أخلاق إبليس قوله: أنا خير منه، فلا يصبك غبار الأنا الفردية ولا الجماعية، فلست خير الناس، ولا جماعتك الصفوة، وإجماع العلماء حجة قاطعة، كما أن اختلافهم رحمة واسعة.

فإما أن تكون عالماً لتدخل إلى قاعة البحث معهم، وهم المحترمون لآراء كل مخالف منهم، وإما أن تكون متلقياً منهم، لتأخذ نتائج اجتماعهم

المرموقة، وأعوذ بالله من جاهل متحمس متحرق يمشي في الظلمات
ويحسبها نوراً: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
[فاطر: ٨].



القاعدة السابعة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن الداعية الماهر من يزن لكل موقف
حاجته من الشدة واللين، وليس
الداعية الحكيم من يأخذ باللين
فحسب، أو الشدة وحدها

إِنَّ مَنْ قَلَبَ صفحات السنة النبوية رأى الأمثلة العجيبة في حال رسول الله ﷺ مع معالجة الأمراض، شدة ورخوة، بل لا أبالغ إن قلت: إن الموضوع يأخذ مؤلفاً كاملاً، يسلط فيه الضوء عن حال رسول الله ﷺ، فعلى سبيل المثال:

استعمل الشدة في موعظة عندما أراد إرشاد أصحابه بقوله: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» - وجلس وكان متكئاً فقال -: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، قال الصحابي أبو بكرة ؓ: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(١).

كما استعمله في موعظة أخرى، وذلك فيما رواه أبو مسعود الأنصاري ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، قال أبو مسعود ؓ: فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَنْقَرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٥٤، ومسلم برقم: ٨٧.

وَالضَّعِيفَ، وَذَا الْحَاجَةِ»^(١).

واستعمل أسلوب إصلاح الخلل من غير غضب، كما قال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ عند بعض نساءه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحيفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحيفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحيفة، ويقول: «غَارَتْ أُمُّكُمْ» ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحيفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت^(٢).

واستعمل أسلوب الموعظة على الملاء، لأن الخلل حصل على ملأ من الناس: وذلك في حادثة الإفك التي كان للمنافق عبد الله بن أبي بن سلول موقفه القذر، وهو الكلام في عرض رسول الله ﷺ، حيث قام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَدَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ»^(٣).

واستعمل أسلوب الإعلام بالخطأ دون التشهير بالمخطئ: قال أبو حميد الساعدي رضي الله عنه: سمع أذناي، وأبصرته عيني، وسلوا زيد بن ثابت فإنه سمعه معي: استعمل النبي ﷺ رجلا من بني أسد يقال له ابن الأتبيّة على صدقة، فلما

(١) أخرجه البخاري برقم: ٩٠، ومسلم برقم: ٤٦٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٦١، ومسلم برقم: ٢٧٧٠.

قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبَعْتُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُّهُدَى لَهُ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعَرٌ»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ» ثلاثاً^(١).

وأخيراً أنبه على أمر مهم في الدعوة، وهو أن أول ما يتبادر لأذهان الناس عندما يؤمرون بالحكمة أن الحكمة هي اللين، واللين هو الأصل بلا شك، وإن كان التعريف الدقيق للحكمة: وضع الشيء في مكانه المقتضي له، شدة أو رخوة أو غيرها، فقد علمتني الدعوة إلى الله تعالى: أن الداعية يشبه الطبيب قد يعالج بالألفاظ المعسولة وبالابتسام والنكتة والطرفة، وقد يضطر لبتز بعض الأعضاء، وقد يلجأ لفرض الدواء العَلَقَم.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٧١٧٤، ومسلم برقم: ١٨٣٢.

القاعدة الثامنة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن لا نتنازل عن الكليات والأساسيات
مهما كلف الأمر، لكننا نترك بعض
الجزئيات - وإن كانت مهمة - إن
تعارضت مع مصلحة أكبر

وهذا باب واسع جداً، وأمثله في الكتاب والسنة كبيرة، قال الله تعالى:
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ...﴾ [غافر: ٢٨]. فإن
الإيمان بالله عظيم لا يترك لأي شيء، وهو كلية لا يستغنى عنها، أما إشهار
الإيمان وإظهاره فهو من الجزئيات التي تترك عند الموازنة بينها وبين مفسدة
أكبر.

وقد نفى الله تعالى من المؤمنين الكفر الذي اضطروا إليه بالألفاظ، فهو
جزئية يتنازل عنها، أما الإيمان القلبي فهو كلية كبرى، وذلك في قوله تعالى:
﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقد حصل مع النبي ﷺ كلا الموقفين، فمن الأول ما رواه الحافظ أبو يعلى
(ت: ٣٠٧ هـ) في مسنده عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جاءت قريش إلى
أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فانه عن أذانا،

فقال: يا عقيل: ائتني بمحمد، فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي، إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم، وفي مسجدهم، فانتبه عن ذلك قال: فخلق رسول الله ﷺ بصره إلى السماء فقال: «**أَتَرُونَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟**». قالوا: نعم قال: «**مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي مِنْهَا شُعْلَةً**». قال: فقال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا^(١).

وأما الموقف الآخر: فقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: «**نَعَمْ**» قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «**إِنَّ قَوْمَكَ قَصَّرَتْ بِهِمُ التَّفَقُّةُ**» قلت: فما شأن بابهم مرتفعاً؟ قال: «**فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكَ، لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكَرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ**»^(٢).

ففي الموقف الأول لم يتنازل الحبيب ﷺ في ذرة، وفي الموقف الآخر ترك الأمر بالكلية، والسؤال هنا: ما الفرق بينهما؟ الفرق هو أن الأول كان في الكليات، أما الثاني فهو جزئية يتنازل عنها.

ومثله مواقف الصحابة رضوان الله عليهم، فقد روى عبد الرزاق في كتاب التفسير، بسند ضعيف: عن عمار بن ياسر، في قوله تعالى: «**إِلَّا مَنْ أُوْكِرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**» [النحل: ١٠٦]، أنه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، برقم: ٦٨٠٤، وحكم الحافظ ابن حجر على إسناده بالحسن، انظر: المطالب العالية ١٧: ٢٥١، وقال محقق مسند أبي يعلى: «إسناده قوي».

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٥٨٤، ومسلم برقم: ١٣٣٣.

فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنا بالإيمان، ثم قال النبي ﷺ: «فَإِنْ عَادُوا فَعُدَّ»^(١).

والحديث صريح عند البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) رحمه الله وغيره: لما قال المنافق عبد الله بن أبي: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر ﷺ فقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد^(٢).

وفي هذا الحديث قصد المنافق عبد الله بن أبي بالأعز نفسه، وقصد رسول الله ﷺ بالصفة الأخرى، وحاشاه بأبي هو وأمي ﷺ.

ما من عاقل فطن إلا ويقدم الأهم على المهم، والكي على الجزئي، والكبير على الصغير، والضروري على الحاجي في شؤون الدنيا من متاع وربح وخسارة، فكيف بمن تجارته مع الله، ورأس ماله الدين، وهو يخدم هدف سيد المرسلين ﷺ؟



(١) تفسير عبد الرزاق رقم: ١٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٠٥.

القاعدة التاسعة عشرة

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن لسان الداعية قطعة من لحم، لكنها
تقطع القلوب إذا أساءت، وتقطع
أوسع الطرق السيئة عن المدعو إذا
أحسن

ما أصدق وما أجمل القول المنسوب إلى عمرو بن معدي كرب: «الكلام
اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخور، والكلام الخشن يخشن القلوب
التي هي أنعم من الحرير»^(١).

وما أجمل قول الحكيم: «الكلام اللين يغسل الضغائن المُستَكِنَّة في
الجوانح»^(٢).

الأمثلة على هذه القاعدة كثيرة، فكم وكم تاب التائبون على أيدي
الدعاة بسبب موعظة من لسان حسن، بأسلوب حسن، وكم كان سوء السنة
بعض الدعاة سبباً في زيادة بعد العاصي عن الله تعالى.

من عادة أهل مصر أن يقول المصلي لأخيه عقب الصلاة: «حَرَمًا» فيجيبه
أخوه: «جَمْعًا» معناه: أن الأخ يدعو لأخيه أن يرزقه الله الصلاة في الحرم، فيرد
عليه أخوه، بأن يعطي الله الصلاة في الحرم له أيضاً، وحصل أن سلم أحد

(١) انظر: التبر المسبوك للإمام أبي حامد الغزالي ص ١١٣.

(٢) الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا ص ١٧٨.

الدعاة من صلاة مكتوبة، إذا بمصل يمد يده ليصافح آخر، وهو يقول له: «حرماً»، فأجابه الآخر بلهجة قاسية وحدة وغلظة: «هذه بدعة». فالتفت الداعية إلى الثاني ورد عليه: وهل سوء الأخلاق سنة؟؟

تصور أيها القارئ أن يكون الذي مد يده لمصافحة أخيه هو تائب يدخل المسجد لأول مرة، وهو مُحْتَفٍ بأخيه بكلمة طيبة يدعو له بالصلاة بالحرم؟ أليس من الاحتمال أن يخرج هذا التائب ولا يعود للمسجد؟

وقد ورد حديث صريح في كلا المنهجين قد حصلا فيمن كان قبلنا، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُدِّلَ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُدِّلَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنَا سَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٧٠، ومسلم برقم: ٢٧٦٦، وهذا لفظه.

فالمفتي الأول لمريد التوبة كان سبباً في زيادة بعد العاصي عن الله تعالى،
بحيث قتل نفساً أخرى كَمَل بها المئة، والآخر كان سبباً في توبته.
الله الله في انتقاء الكلمة التي تخرج من اللسان، فربما توبق شخصاً،
وربما تعقته.



القاعدة العشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الدعوة للدين عند الداعي كالذي به
 جوع ونهم فهو لا ينسى قرص الجوع،
 وكذلك الداعية لا يترك فرصة إلا
 انتهزها بالدعوة إلى الله**

من أجمل القصص التي قرأتها في سيرة سيدنا عمر رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه، أنه جاء رجل شاب بعد أن طعن عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: «وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي». فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: «يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك»^(١).

وهذا أنس يخبر عن آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه: «**الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»^(٢).

إذا كان هذا حال الداعية عند وفاته هو، فلا عجب أن تراه عند وفاة غيره جالساً عند رأسه يدعو للهدى، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعده عند

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٠٠.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ٥٨٥، وأبو داود ٥١٥٦، وهو حديث حسن.

رأسه، فقال له: «أَسْلِمَ»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم عليه السلام، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وهو يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وقال المسيب بن حزن عليه السلام: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وآله، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي طالب: «يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَمَّا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]^(٢).

عجبت لمن سمع إجماع الأطباء على ضرر كثرة الطعام وهو مدمن شرس، ورأى شدة ضرر الدخان على الجسد وهو شرَّاب غارق، لكن عجبني أشد من داع يرى فرصة للدعوة ولا ينبس ببنت شفة، شأنه يشبه الجاهل الذي قال للداعين: لم تعظون قوماً مهلكهم؟

بخ بخ لمن نجح في تجارته في كثرة العرض والتسويق واستغلال الفرص، والأربح منه من لم تفتته فرصة إلا وفرش بضاعة الدعوة بأحسن تشويق، حتى فازت دعوته، وبث الهداية في الحاضرين.

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٣٦٠ واللفظ له، ومسلم برقم: ٢٤، والآية من سورة التوبة.

القاعدة الحادية والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية يشبه المهندس الزراعي في
 صنعته^(١)، فأحياناً يزرع، ومرة يقطع،
 وأخرى يداوي**

هذا التشبيه يظهر عند معرفة أنواع الزروع، فالزرع إما أن ينفع في مظهره كالخضار وبعض الأزهار، أو ريجه كبعض الورود، أو طعمه كالفواكه والخضروات، أو أن يكون مضرًا: كالشوك والسم.

وصنعة المهندس الزراعي هي: تكثير نتاج الزرع المفيد، وتحسين مظهره، وتطعيم الشمار من بعضها، وقلع الشوك والمضرات، ووضع الأسمدة اللازمة بالكميات اللازمة، وتأمين الماء النافع، وإبادة الحشرات الضارة التي تعصف في المطعومات أحياناً.

صنعة المزارع تشبه صنعة الأنبياء والمرسلين، لكن صنعة الأنبياء

(١) من عجب قضاء الله وقدره أنني جلست أصحح هذه النسخة صباح الأربعاء ١٤٤٣/٣/٧ بعد انقطاع طويل، فحضر إلي شاب زائر من إصطنبول، وقدمت له نسخة مطبوعة من كتابي هذا: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى»، وليس بيني وبين الشاب موعد لقاء، ولا موعد قراءة، إذا بالشاب يخرج رسالة «أيها الولد» للإمام الغزالي من جواله، واستأذن أن يقرأ بعضاً منها، وكان منها: تشبيه الإمام الغزالي رحمه الله للتربية بمثال قريب مما ذكرته، حيث قال رحمه الله: «ومعنى التربية: يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسن نباته، ويكمل ريعه». انظر: «أيها الولد» ص ٦٠.

بشكل أشرف وأحسن، لأنها مع بني الإنسان.

أما إكثار الشمار النافع: فهذا رسول الله ﷺ يكثر الورود الجميلة ويعنى بهداية الناس، ولما سأل هرقل أبا سفيان: بم يأمركم؟ أجابه: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف^(١). وقد أخرج النبي ﷺ جيلاً من القادة الدعاة إلى الخير والبر والإحسان، كان كل واحد منهم نموذجاً يقتدى به في الأخلاق.

وأما تحسين مظهره الحالي: فيقول ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»^(٢)، وقد تم ذلك بإقرار العادات الحسنة التي كانت، وإكمالها بما ينقصها.

وأما تطعيم الشمار: وقال رسول الله ﷺ للأشج أشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَانَةُ**»^(٣).

وهذا من هدي النبي ﷺ أنه يذكر محاسن القوم أمام بعضهم كي يقتدي بعضهم ببعض وتلقح الثمرة من أختها، ويزداد الخير ويظهر الطعم الحسن من الأول للآخر، وذلك عندما رأى الفقر بادياً على بعض أصحابه، فحث الناس على الصدقة بقوله: «**تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرٍّ، مِنْ صَاعِ تَمْرٍ**». حتى قال: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذهبة،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٥٣، ومسلم برقم: ١٧٧٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم: ٨٩٥٢، والحديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ١٧.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وأما قلع الشوك المضر من بين الزرع النافع، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقد أفتى النبي ﷺ بتغريب الشاب الذي زنى، كي لا يضر من بجانبه من باقي إخوانه^(٢).

ولما رأى شوكة ضاراً بين المؤمنين اقتلعه من جذوره، فقد قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنا في غزاة، فكسع^(٣) رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دَعُوها فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ»^(٤).

وأما وضع الأسمدة اللازمة بالكميات اللازمة، وتأمين الماء النافع فهو

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٠١٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٤٩، ومسلم برقم: ١٦٩٧.

(٣) الكسع: هو الضرب باليد أو الرجل دُبُرَ إنسان، انظر: «فتح الباري» ٨: ٦٥١.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٠٥، ومسلم برقم: ٢٥٨٤.

الإيمان والخلق الذي زرعه النبي ﷺ، وهذا ما لا ينحصر بأدلة ولا براهين، فعن عبد الله بن بسر ؓ أنه قال: جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أخبرني أمر أثبت به، قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

وأما إبادة الحشرات الضارة التي تعصف: وهذا أيضاً له أدلة وفيرة:

عن المعرور بن سويد أنه قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»^(٢).

وفي هذا الحديث تصريح بوجود سرطان مهلك مس سيدنا أبا ذر ؓ، ألا وهو شيء من أمراض الجاهلية، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أزال هذه الموضة واستأصلها من جذورها، حتى إن التابعي رأى أبا ذر بعد سنين، وقد التزم بمحاذير ما طلب منه، وألبس غلامه حلة لأنه لبس.



(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ١٧٦٨٠، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٠، ومسلم برقم: ١٦٦١.

القاعدة الثانية والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن الداعية الموفق من يقدم لكل
 مريض ما يناسبه من دواء، وإن كانت
 الشكوى واحدة**

هذا من دقائق علم الدعوة، لا يفتن إليها كثير من الدعاة، وسأبدأ من هدي رسول الله ﷺ ثم أنتقل إلى بيان الخطأ.

لقد كان رسول الله ﷺ مرجع المسلمين في زمانه، وكان يأتيه عدد من السَّوَال، وكلهم يسألون سؤالاً واحداً، ولكن النبي ﷺ لم يصف لاثنتين منهم وصفة واحدة، فضلاً عن الجميع، مع أن السؤال قد اتحد.

فعلى سبيل المثال: عن أبي هريرة ؓ، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: **«لَا تَغْضَبُ»** فردد مراراً، قال: **«لَا تَغْضَبُ»**^(١).

وعن أبي هريرة ؓ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يريد سفراً، فقال: يا رسول الله أوصني قال: **«أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْوِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ»**، فلما مضى قال: **«اللَّهُمَّ ارْزُوقْهُ الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ»**^(٢).

وعن سليم بن جابر الهجيمي، قال: انتهيت إلى النبي ﷺ، وهو مُحْتَبٍ في بردة له، وإن هدبها لعلى قدميه، فقلت: يا رسول الله أوصني، قال: **«عَلَيْكَ**

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١١٦.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ٨٣١٠، والحديث حسن.

بِاتِّقَاءِ اللَّهِ وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَقِيِّ وَتُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِّطٌ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِرَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ وَلَا يُحِبُّهَا اللَّهُ وَإِنْ أَمَرُوا عَيْرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ مِنْهُ دَعَا يَكُونُ وَبَالُهُ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلَا تُسَبِّحَنَّ، قال: فما سببت بعده دابة ولا إنساناً^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفراً، فقال: يا نبي الله أوصني، قال: «اعْبُدِ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا»، قال: يا نبي الله زدني، قال: «إِذَا أَسَأْتَ، فَأَحْسِنْ»، قال: يا رسول الله زدني، قال: «اسْتَقِمْ وَلِيُحْسِنْ خُلُقُكَ»^(٢).

وروي عن علي بن عبد الله بن عباس، رضي الله عنه، سمع أبا، يقول: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «أَقِمِ الصَّلَاةَ وَادِّ الزَّكَاةَ وَصُمْ رَمَضَانَ وَحُجَّ الْبَيْتَ وَاعْتَمِرْ وَبَرَّ وَالِدَيْكَ وَصِلْ رَحِمَكَ وَأَقْرِ الضَّيْفَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَزُلْ مَعَ الْحَقِّ حَيْثُ زَالَ»^(٣).

والأحاديث في هذا كثيرة وفيرة.

كان بعض الدعاة يركز على ذكر الله تعالى: فإذا ما جاءه شخص يشكو له الخلاف مع زوجه قال له: عليك بذكر الله، ولو كنت من الذاكرين لما دخل الشيطان بينك وبين زوجك، ويشكو له ثان قلة الرزق، فيصف له ذكر الله، ويعرفه أن قلة الرزق جاءت من قلة الذكر، ويأتي ثالث فيشكو ضعف

(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٥٢١ - وهذا لفظه -، وأحمد برقم: ٢٦٣٣، والحديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، برقم: ٥٢٤، والحديث حسن.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک، برقم: ٧٢٧٦، والحديث ضعيف.

الجسد، فيعطيه الوصفة ذاتها مع التعليل، ثم رابع يعاني وجع الرأس، وآخر قد أصيب بالسحر، والوصفة ذاتها، والتعليل مشابه.

أقول: وفي هذا بُعد شديد عن العلاج الدعوي الناجح، فهل كان رسول الله ﷺ قليل الذكر لله لما اختلف مع نساءه، كما في الحديث الصحيح؟ أم هل قلل من ذكر الله لما أصابه السحر؟ أليس من الخطأ أن ترد الأسباب إلى سبب واحد؟ والعجيب أنه يسأل أسئلة متعددة ويوجب إجابة واحدة، أما رسول الله ﷺ فإنه يسأل سؤالاً واحداً ومع ذلك تختلف الإجابة باختلاف الأشخاص، إذ إن النبي ﷺ يشخص حالة السائل وما يحتاج إليه من علاج.

ألا فلتنوع الصفات للناس، وإن كانت الشكوى واحدة، وما أقرب طبيب العيون من ظاهر صنعة الدعاة، فإنه يأتيه في اليوم عدد من المرضى، كلهم يشتكون وجعاً في العين، ولكل داء دواؤه، كما لكل وجع علاجه، فكيف لا يكون لكل مشتك من المدعوين طبه!



القاعدة الثالثة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن الداعية إذا لم يواكب عصره فلا
مطمح له بنجاح يذكر

من أطرف الأمثلة التي سمعتها عن بعض العصريين أنه سئل ما رأيك بالبرلمان؟ فقال: لا أعرفه أهو رجل أم امرأة؟

ومن أجمل الأمثلة الجيدة أن عدداً من شيوخ الذين أكرمهم الله بملازمتهم قد واكبوا عصرهم وكان أحدهم شاب من الشباب، فهو يعمل على جميع مواقع التواصل الاجتماعي، وينشر بيده، ويصحح كتبه على الجهاز الحاسب، وإن أحد هؤلاء قد جاز تسعين عاماً.

ومن الأمثلة الناضجة التي يحتذى بها مبادرة شيخنا المحدث الشيخ محمود ميرة رحمه الله (ت: ١٤٤١ هـ) إلى إدخال علم الحديث الشريف إلى الجهاز الحاسب، وذلك عند مطلع القرن الخامس عشر الهجري، أي: فور وصول هذه الأجهزة إلى الوطن العربي، وقد دفع من حر ماله عشرات الآلاف، وفي وهلة الخبر الأولى ظهر بعض المثبطين يسخرون من عمل الشيخ، وندت من بعضهم كلمات السخرية بالعلماء، ولا غرابة، فهم ممن انبهر في الغرب، وأصيب بعقدة النقص في محيطه، ولم يستطع خياله أن يمتد أمتاراً طويلة، أو أن يتخيل في علماء هذا العصر من عنده سعة الأفق التي تواكب العصر، وتطور المخترعات لخدمة جوانب الدين، ولكن مشكلة هؤلاء العلماء أنهم

محاطون بثلة من أهل العجز، وبعض الحكومات التي تقمع أصحاب الفكر النظيف، وتَحِيلُ هذا المَشْطَ أن كل العلماء مثله في الشعور بالنقص، والانبهار بالغرب، والتسليم للمخترعات من غير وضع بصمة تخدم دين الله تعالى.

ومن الأمثلة الكئيبة التي لا تسر إلا أعداء الدعوة، أن بعض الشباب المعاصر يفخر أنه لا يعرف تشغيل الجهاز الحاسب، وبعضهم يفخر بأنه لو تركت يده في غير زقاق بيته لضاع، وما أحوجه إلى التوبة بدل الافتخار! فبقارن بين هذا وبين الأول، وأي نجاح وتآلق يُطلب من مثل هذا؟

وقد كان النبي ﷺ يمشي مع عصره بالمستجدات، فعلى مستوى المستجدات الحياتية: يقول ابن عمر رضي الله عنهما: لما بدن قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله، يحمل عظامك؟ قال: «بَلَى»، فاتخذ له منبرا مرقاتين^(١).

وعلى مستوى المواكبة الدولية: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كتب النبي ﷺ كتابا، فقليل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا محتوما، فاتخذ خاتماً من فضة، نقشه: محمد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده^(٢).

وكان سلمان قد أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق وقيل الفكرة بل نفذها^(٣).

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٠٨١، والحديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٥، ومسلم برقم: ٢٠٩٢.

(٣) هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٧: ٣٩٢ حيث قال: «أما تسميتها الخندق فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ، وكان الذي أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغازي، منهم أبو معشر، قال: قال سلمان للنبي ﷺ إنا كنا بفارس إذا

ولا أطيل بذكر الأمثلة أكثر من هذا.

وحصل أن شيخاً من علماء الهند كان يكفر من استعمل مكبر الصوت داخل المسجد بحجة أنه من صنع الكافرين، وأن مساجد الله لا تدخلها أعمال الكفار، فسمع شيخ فطن بصير بهذا الخبر، فاجتمع به في المسجد وتلطف بسؤاله قائلاً: لدي سؤال مهم يمكن أن أعرضه عليك؟ أجابه: حباً وكرامة، فأخرج الشيخ السائل ورقة من جيبه بخط دقيق لا يكاد يقرأ، فاستلم الشيخ الكبير الورقة لقراءتها ولم يتمكن من قراءتها، فمد يده إلى جيبه ليخرج النظارة، فأمسك الداعية الحكيم يده قائلاً: ماذا تخرج من جيبك يا سيدي؟ قال: النظارة كي أقرأ الورقة، فضحك وقال: يا سيدي وهل استعمالها جائز؟ فاندesh الشيخ من هذا السؤال؟ وقال الداعية: يا سيدي: كافر صنع نظارة لتكبير الخط، وأنت تستعملها في المسجد، وصنع مكبر صوت لتكبير الصوت فهل نمنع استعمالها في المسجد؟

عندها اتضحت المسألة لدى الشيخ المنكر، واقتنع بالجواز بسبب حكمة ذاك الحكيم.

وأخيراً أقول: ما من دعوة متكاملة تألفت إلا وصاحبها مواكب لعصره، يعيش واقعه، وما تخلف عن عصره أحد إلا ظهر النقص في حياته، شاء أو رفض.



حوصرنّا خندقنا علينا فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم.

القاعدة الرابعة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**ألا أتميز على المدعوين بلباس أو زي
 غير مألوف للناس**

حصل أن غيّر بعض الدعاة في لباسه إلى لباس لافِت للانتباه، فأصبح ذلك الداعية محط أنظار الناس، وحديث العوام في سمرهم ممن يعرفونه، والحق يقال: إن هذا الأخ لم يأت بما يخالف الله تعالى ولا رسوله ﷺ، لكنه خالف المألوف من أعراف قومه.

وتعجبني كلمة هنا للحافظ ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله يحكي فيها عن حال رسول الله ﷺ في اللباس فيقول: «وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نسج من القطن، وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان، وذكر الشيخ أبو إسحاق الأصبهاني بإسناد صحيح، عن جابر بن أيوب، قال: دخل الصلت بن راشد على محمد بن سيرين، وعليه جبة صوف وإزار صوف وعمامة صوف، فاشمأز منه محمد، وقال: «أظن أن أقواما يلبسون الصوف ويقولون: قد لبسه عيسى ابن مريم، وقد حدثني من لا أتهم أن النبي ﷺ قد لبس الكتان، والصوف، والقطن، وسنة نبينا أحق أن تتبع».

ومقصود ابن سيرين بهذا ؛ أن أقواما يرون أن لبس الصوف دائما أفضل من غيره فيتحرّونه ويمنعون أنفسهم من غيره، وكذلك يتحرّون زيا واحدا من الملابس، ويتحرّون رسوما وأوضاعا وهيئات يرون الخروج عنها منكرا،

وليس المنكر إلا التقيد بها والمحافظة عليها وترك الخروج عنها. والصواب: أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنّها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها، وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة، ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر، ولبس الحبة والقباء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل، وأرخی الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة، وكان يتلحى بالعمامة تحت الحنك^(١).

فالمهم في هذا النقل أن النبي ﷺ كان لا يتميز باللباس عن أصحابه ولا عامة الناس.

هذا وقد ورد نهي خاص عن اللباس الذي يميز الشخص ويشهره: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شَهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ»^(٢).

أما لباس الشهرة فهو مذموم شرعاً، وأما التميز بالنظافة والتجمل بالشوب الحسن فهو أمر محبوب ممدوح، ولباس الشاذ يورث نظرة الشر، ويلفت النظر.



(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٣٧.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ٥٦٦٤، وأبو داود برقم: ٤٠٢٩، وهو حديث حسن.

القاعدة الخامسة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن من أكبر عوامل هدم العمل الجماعي
هو تتبع الزلات بين فريق العمل، وأكبر
موفق لها التغاضي عن الدنيايا، وعن
الزلل الصغير بين العاملين

وعندي أصل أصيل في هذا المعنى، وذلك عندما بعث النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن قال: «يَسْرًا وَلَا تُعْصِرًا، وَكَيْشَرًا وَلَا تُنْفَرًا، وَتَطَوَّعًا وَلَا تَخْتَلِفًا»^(١).

وأي عمل جماعي اثنان فما فوقه إذا لم يتم بالتطوع، وانصياع كل أخ لأخيه، وكل مرؤوس لرئيسه، فإنه لا بد أن ينهدم، ومجرد ظهور التشنج بين الأعضاء - ولو كان صغيراً - لا بد أن يتطور ويتفاقم، وعقرب الساعة متى افترق عن أخيه افتراقاً دقيقاً أصبح زاوية حادة، وتنظر إلى الفرق بينهما فتراه صغيراً، وما أن تمشي معه بضعة أمتار إلا أصبح أحدهما مُشَرِّقاً والآخر مُعَرِّباً.

أما التغاضي عن الزلل مع محاولة الإصلاح فإنه يوفق العمل، وجماعة مع بعض الهنات الصغيرة، خير من فرقة مع كمال كل متفرق عن أخيه، وفي الوقت الراهن كم أجريت من تدريبات ودورات على القيادة، وكم كنت

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

أرجو أن يكون مثلها في العدد - على أقل تقدير - في التدريب على الجندية، فأكثر أمراض تفرق أعضاء العمل الجماعي هو تمرد بعض الفريق على الجندية والسمع والطاعة لمن فوقه.

وبكل حزن أقول: كم فرّق الشيطان بين الأخوين في العمل الجماعي تحت شعار الإفصاح عن الحق، وفي هذا يقول العلامة الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله تعالى: «إني لا أخشى على نفسي أن يغريني الشيطان بالمعصية مكشوفة، ولكني أخشى أن يأتيني بها ملفعة بثوب من الطاعة يغريك الشيطان بالمرأة عن طريق الرحمة بها، ويغريك بالدنيا عن طريق الحيلة من تقلباتها، ويغريك بمصاحبة الأشرار عن طريق الأمل في هدايتهم، ويغريك بالنفاق للظالمين عن طريق الرغبة في توجيههم، ويغريك بالتشهير بخصومك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويغريك بتصديق وحدة الجماعة عن طريق الجهر بالحق، ويغريك بترك إصلاح الناس عن طريق الاشتغال بإصلاح نفسك، ويغريك بترك العمل عن طريق القضاء والقدر، ويغريك بترك العلم عن طريق الانشغال بالعبادة، ويغريك بترك الجهاد عن طريق حاجة الناس إليك، ويغريك بترك السنّة عن طريق اتباع الصالحين، ويغريك بالاستبداد عن طريق المسؤولية أمام الله والتاريخ، ويغريك بالظلم عن طريق الرحمة بالمظلومين»^(١).

العمل الإسلامي لا يعيش إلا في مسلكين: مسلك جماعي، وهذا يحتاج إلى تعاون الإخوة الدعاة فيما بينهم، وتغاضي كل واحد منهم عن زلات

(١) هكذا علمتني الحياة ص ٨١.

إخوته، والتقرب والتناصح وعدم السكوت عن الكبائر، ومسلك فردي: وهو الذي يقتات على مراجعة النفس بشكل دائم، وعرض الأعمال والآراء والأفكار على أصدقاء الطريق الناصحين، وتقويم الخلل، وعدم وقوف الإنسان مكانه.



القاعدة السادسة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن الداعية البصير من يكون واقعياً
مع إخوانه فيعاملهم على أنهم بشر
يخطئون ويصيبون

ومن أجهل الأدلة التي تحضرني الآن ما قال سيدنا علي عليه السلام: بعثني النبي ﷺ والزبير، فقال: «**اُتُّوا رَوْضَةَ كَذَا، وَتَجِدُونَ بِهَا امْرَأَةً، أَعْطَاهَا حَاطِبٌ كِتَابًا**»، فأتينا الروضة: فقلنا: الكتاب، قالت: لم يعطني، فقلنا: لتخرجن أو لأجردنك، فأخرجت من حجزتها، فأرسل إلى حاطب، فقال: لا تعجل، والله ما كفرت ولا ازددت للإسلام إلا حياء، ولم يكن أحد من أصحابك إلا وله بمكة من يدفع الله به عن أهله وماله، ولم يكن لي أحد، فأحببت أن أتخذ عندهم يداً، فصدقه النبي ﷺ، قال عمر: دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق، فقال: «**مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**»^(١).

وهذا الفعل على فظاعته من سيدنا حاطب عليه السلام لم يخرج من دائرة الإسلام، ولم ينافق به كما توهم سيدنا عمر رضي الله عنه، وصح له الحبيب ﷺ، والواجب من هذا الحديث أن نعرف أن الشخص قد يصيب ذنباً كبيراً، ومع ذلك نكون بجانبه ولا نتركه للشيطان، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: أتني النبي ﷺ بسكران، فأمر بضربه. فمنا من يضربه بيده ومنا من يضربه بنعله

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٨١، ومسلم برقم: ٢٤٩٤.

ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ما له أخزاه الله، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(١).

وفي العبارة لمسات تربوية عديدة، منها تعبيره ﷺ: «عَلَى أَخِيكُمْ».

وفي رواية أخرى من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، قَالَ اللَّهُ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢).

أَيكون الأخ مخطئاً إلى هذه الحدود؟ أيمكن أن أعمل في الحقل الدعوي مع من تزل نفسه إلى هذا الحد؟

أجل والله! وزيادة، لأن من رام قوماً يعمل معهم ولا يخطئون فليدجأ إلى مجتمع الأنبياء والمرسلين، لكن شرط الدخول في ذاك المجتمع لا يشملته، فهو من الخطائين، وهم لا يقبلون أصحاب الخطأ.

قيل لداعية متألق من علماء حلب: كلمنا بصراحة، ما السر الذي يجعلك تمشي مع الشيخ فلان، وتعد نفسك من تلامذته، وهو هزيل العلم، ضعيف البضاعة؟ لا يقاس علمه بعلمك!

فما رد عليهم بوصف شيخه بهزالة العلم ولا أقرهم، ولكنه أجابهم بما يجب الوقوف عنده: قال: ماذا تتوقعون من شاب دخل سلك العلم الشرعي،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

وكانت له صبوة، وكان يأتي كل يوم ببدعة من بدع الحلاقة واللباس والتجمل الذي يمارسه الشباب، وكل الشيوخ توبخه، وتسمعه أذي الخطاب الذي يشجعه على ترك العلم والتزام حلق الملدات والشهوات، إلا شيخاً واحداً فإنه تولاه واستوعبه، وقربه وحببه، وأقره على فعله بصورة مرحلية، ومدحه في جوانب الخير بما لم يسمعه من أولئك المثبطين، حتى تمكن حب العلم من قلبه والتفت إلى العلم وترك ميعة الصبا، أتوقعون النكران لهذا الذي ثبته على العلم؟ أيجوز له أن يرفع رأسه ليقوم ولي نعمته وسبب ثباته، أمن الأدب أن ألتفت ورائي وأقيس نفسي بمن كان سبباً في ثباتي على العلم! لا ورب الكعبة إنه خير مني وله الاحترام الواجب، والعين لا تعلو على الحاجب.



القاعدة السابعة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أنني قد أدعو من اقتترف الكبائر فأجد
منه القبول والشكر، وقد يمتنع التقى
عن قبول النصح

مما يجب على الداعي أن يفرق فيه بين عرض الدعوة، وبين قبولها، فالعرض من الداعي، أما القبول فمن المدعو، ولا ارتباط أبداً بين نجاح الداعي، وبين قبول المدعو، فقد يدعو الناجح بأحسن أسلوب ولا يجد التلقي من السامع، بل لا يتغير أحد من السامعين على ممر السنين، وهذا لا يحكم لدعوته بالبور، ولا الإخفاق، فقد ورد في الحديث: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١).

وعكس هذا: قد يقدم الداعي دعوته بطريقة مشوهة شلاء، فيتلقاها المدعو بصدر رحب، ويفتح الله أذنه لسماع الحق، وهذا لا يحكم أبداً بنجاح طريق الدعوة، إنما هي محض هداية من الله، مع خلل في الأسباب.

وبناء على هذا: فما التحليل الدقيق لمن قدم الدعوة بأنجح أسلوب للقريب التقى الملتزم ولم تجد الدعوة قبولاً؟ وقدمت نفسها بالأسلوب نفسه لعاص بعيد شريد فقبلها؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٠٥، ومسلم برقم: ٢٢٠، الرهيط: تصغير كلمة الرهط، والرهط: نفر، فلا يتجاوز عددهم العشرة.

هذا ما حصل مع النبي ﷺ في قصة الغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعده عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمَ»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). وهذه الاستجابة مستبعدة غاية البعد، إذ ليس من المتوقع أن يأمر الأب اليهودي ولده المحتضر بطاعة النبي ﷺ.

وعلى العكس من ذلك، فإن سيدنا سلمة بن الأكوع ﷺ يروي أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قال: لا أستطيع، قال: «لَا اسْتَطَعْتُ» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه، وليس من المتوقع أيضاً أن يتخلف عن أمر رسول الله ﷺ صحابي جالس يأكل في مجلسه^(٢).

فانظر إلى فعل النبي ﷺ في كلتا الحالتين، وهو أنه لم يعمل بالمتوقع، إنما عمل بالواجب عليه، وهو التوجيه والتعليم، استجابة لطلب الله تعالى له: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة: ٦٧] وأخطأ من صنف الناس وتعامل معهم على حسب التصنيف الحاضر في ذهنه.

من هنا أخلص إلى قاعدة مهمة في علم الدعوة، ألا وهي: الداعية صاحب كنز رباني يريد تسويقه بأحسن طريقة، فلا يصنف الناس إلى مستجيب وغير مستجيب، ولكنه يعرض بضاعته بكل أداء حسن، وعرض

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٠٢١، وأكد الإمام النووي رحمه الله أن الرجل هو بُسر الراعي، وهو صحابي معروف.

مشوّق، ثم من قَبْلِ فلنفسه، ومن رد فعلِها.

وفي الحياة العملية من خلال تجارب من العلماء والمربين، كم وكم كانت كلمة صغيرة من عالم سبباً في تغيير مسار رجل سوء، وكم وكم نُصِح بعض أهل التقوى والإيمان بخطأ واضح بيّن فكابروا وأصروا واستكبروا استكباراً ولم يستجيبوا، فلا بد أن توطن نفسك للمكابدة عند دعوة الملتزمين.



القاعدة الثامنة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن أركز في دعوتي على أصناف الشباب،
فهم أسرع قبولاً واستجابة، وأقدر على
التغيير

وهذه الخبرة الدعوية تؤخذ من بداية عهد النبي ﷺ إلى نهايته، فجل من ناصره وآزره وكان معه هم الشباب، فعليّ كان حدث السن، وأبو بكر كان نحو الأربعين، ومثله عمر، وعمار وياسر وسمية ومعاذ وسعد وسعيد وكلهم كان من الشباب أو بدايات الكهولة، وقُلَّ في الصحابة كبار السن ﷺ.

فدعوة الشباب سريعة، وله مَزِيَّة الحركة والتأثير، بخلاف دعوة كبار السن، فهي بطيئة، وإن حصل النفع فغالباً ما يكون مقتصراً على الشخص نفسه فحسب.

ومن فوائد دعوة حدثاء الأسنان أنهم يخلفون الكبار بعدهم، فجل من روى الحديث عن رسول الله ﷺ وأكثر الرواية هم الصغار: كأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وأنس، وعائشة ﷺ.

أجل؛ لا تجوز نسبة حديث: «نصرت بالشباب» إلى النبي ﷺ، ولكن المعنى صحيح، ولا بد من التنبيه إلى عدة معان:

الأول: أكثر الأعمال نجاحاً ما قام على تخطيط العقلاء الكبار، وحركة الشباب والصغار، وقلما استلم الشيوخ الكبار أعمالاً حركية ونجحت، وعلى

العكس كذلك: فمن النادر أن ترى أعمالاً تخطيطية ينجح بها الشباب وحدثاء الأسنان، فموضع القوة في الكبار هو التخطيط، كما أن أنجح أعمال الشباب ما كان مفتقراً للجد والحماس والحركة.

الثاني: لقد آتى الله تعالى المرونة العقلية للإنسان الصغير لكَحْمِهِ الغض، وكلما كبرت سنه زادت قسوة عقله، فالشباب أرسخ في المرونة، وإقناعهم بأي فكرة أسرع.

الثالث: عند كبر السن وازدياد العقل يصعب تغيير الأفكار، بخلاف الشاب فإنه سريع التلقي والتغيير، فكيف بالعقل إذا وصل إلى حد التكلس؟ إنه من المؤكد صعوبة التغيير والتبديل، إلا أن يشاء الله.

ولست أنفي في هذا وجود الحالات التي تخالف هذه القاعدة، فمن راعى عقله وسقاه بسقيا المعرفة بشكل دائم بقي عقله غصاً طرياً كأنه الآن ولد، ومن حَجَّرَ على ذهنه وأحكم المغاليق حول عقله، ومنعه التحرك والتشغيل أصيب بالصدأ وإن كان في سن المراهقة.

فالخلاصة تكمن: في تركيز الدعوة على فئة الشباب، وعدم ترك الدعوة لمن سواهم، ومحاولة تحميلهم هم الدعوة، فإذا اقتنع أحد من الشباب بالدعوة وتحرك باتجاهها فإن النتائج على يديه كبير وعظيم إن شاء الله.



القاعدة التاسعة والعشرون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن يوطن الداعية نفسه على سماع
نصح من هو دونه، فقد تجد في
السواقي ما لا تجد في المحيطات

من أخطر أمراض الدعوة أن يرى الإنسان نفسه غير محتاج إلى النصح، ولا التعديل في سلوكه، ولا التغيير في أساليبه، فلا يرى أحداً فوقه، وقد يزدري بمن هو معه، فضلاً عن أن يعترف بعلم وخبرة من هو دونه.

وما أجمل الداعي إذا بحث عن الفائدة عند من هو دونه، سواء أكان في السن، أو التلمذة، كأن يسمع التوجيه من أحد طلابه، فقد روى البخاري في صحيحه قصة غزوة الحديبية، وفيها أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**قُومُوا فَأَنْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**»، قال الراوي: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً^(١).

وسمع النصح الحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه يوم بدر، لما قال له: يا رسول الله، هذا

(١) برقم: ٢٧٣١.

منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه أم هو الرأي والحرب؟ فقال: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ». فقال الحباب: كلا ليس هذا بمنزل. فقبل منه النبي ﷺ^(١).

وسمع نصح سلمان في حفر الخندق، لما قال له: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم^(٢).

ومن المهم جداً تنبيه الدعاة المعاصرين على سماع نصح من دونهم من الشباب في الأمور الحياتية المعاصرة، فهم أعرف وأعمق وأشمل في معرفة التكنولوجيا، ووسائل التواصل، وجديد الاختراعات وغير ذلك.

إن في توجيه الله تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ليعطي صورة عجيبة لكل من يقول: إنما أوتيته على علم عندي، أو تقول له نفسه: ما علمت لك من عاقل مثلك، لأن الله تعالى يوصي أعقل العقلاء، أن يشاور في الأمر أصحابه الذين صنعهم وعلمهم، وأخرجهم من غياهب: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، إلى أنوار معرفة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، أيعقل أن يكون الرسول ﷺ بحاجة لبعض آراء تلامذته وأصحابه؟ أجل: مهما عظم العظيم

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٢: ٩ في ترجمة الحباب بن المنذر ﷺ: قال ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة، وغير واحد في قصة بدر... وذكر النص الآنف. وهذه الحادثة من مراسيل عروة، وهي لا تعد في صحيح الأخبار، ولكنها مقبولة في السيرة النبوية.

(٢) انظر: فتح الباري ٧: ٤٥٣.

فإن لآراء من حوله من أعوانه لها موضعاً لا تسده عظمته.

فحذاري حذاري أن تكبر في عين نفسك، حتى ترى أنك أكبر من
سماع من دونك، ففي المختصرات من الفوائد ما لا تجده في المطولات
والحواشي، وعند صغير القوم ما لا يعرفه القائد والمرجع.



القاعدة الثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
إن ضاق بي بلد أن أخرج إلى غيره

إن تغيير البلد حل وجيه لمن ضاقت عليه الأرض فيها، وهُدّد أمنه وأمانه، وليس من البسالة الإصرار على البقاء في بلد يغلب على ظن الداعي أن حتفه فيه قريب، أو التنكيل في جسده، أو حبسه وقتل شبابه، وإماتته نفسياً في السجون.

أجل؛ لو خيرت بين بقاء الإقامة في بلدك وبين الخروج إلى بلد آخر فالأصل بقاء كل داعٍ في بلده، لأن لسانه أفصح في خطاب قومه من غيره، أما لو صار عند مفترق طريق: بين البقاء في سجن بلده وبين الخروج فلا أحد يقول: السجن أحب إلي من الانتقال إلى بلد من بلاد الله الواسعة، التي يستطيع فيها أن يمارس دعوته من غير تضيق ولا تحريج.

وهذا ما فعله النبي ﷺ يوم فكر بالهجرة إلى الطائف، ولولا تضيق أهل مكة عليه لما تركها، ولولا حجر حرите لما غيّر.

والهجرة إلى الطائف محاولة رائعة من الحبيب ﷺ، لكن أهل ذاك البلد لم يختاروا النجاة ونيل شرف المناصرة لرسول الله ﷺ.

كما هي البديل الذي أمر به رسول الله ﷺ أصحابه حيث وجههم قبل الحبشة، والله يختار لرسوله الأعلى والأنسب، ثم ظفر أهل المدينة بشرف

هجرة النبي الأعظم ﷺ إلى بلدهم، وهو عز لهم إلى هذا اليوم، وهذا ما فعله في هجرته إلى المدينة المنورة، ونشر دعوته فيها، ثم عاد إلى مكة زائراً.

ثم في هذا الزمن كم من الدعاة من لف بلده طوقاً أمنه على رقبتة، فترك البلد ووجد سعة في أرض الله، واستطاع أن يوصل النفع إلى بلده في طرق التواصل أكثر بمراحل من وجوده في البلد نفسه.

إنها الخيارات العقلانية البعيدة عن العاطفة الفائرة من غير اتزان.

وَأَيْنَمَا يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ مِنْ بَلَدٍ عَدَدْتُ أَرْجَاءَهُ مِنْ لُبِّ أَوْطَانِي

ولا مانع من الرجوع إلى أحب البلاد إلى قلبه بعد الغياب عنها، إن سهل الله له، فَتَنَعُ الإنسان لأهل بلده أمر محبب، ولكن لا على حساب إتلاف النفس، والعيش في السجون، والضيق المالي القاتل.

وهذا ما كان من سيدنا جعفر ﷺ، بعد أن حمى نفسه ومن معه في هجرة الحبشة، بقي فيها إلى أن استقر الحال في المدينة، فرجع إليها في السنة السابعة للهجرة.



القاعدة الحادية والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
ألا أصغي لكلام المثبطين مهما قالوا،
وألا ألتفت لما يضحون من عقبات
وسلبات

التثبيط غالباً لا يأتي إلا من حبيب ناصح، أما العدو فإنه وإن تظاهر بالنصح والشفقة فإنه مكشوف معروف، وكثير من الأتباع ومن حول الداعية يجلبون له أسوأ المخاوف التي توجب الحذر وتجلب الخوف، كما فعل أصحاب موسى مع كريم الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: ٦١ - ٦٢].

وفي أخبار المتقدمين، ومما رأيته بنفسني في الدعوة أن بعض الناس يتوجهون للداعية بالتثبيط ومحاولة التيئيس من إجابة الناس، فمن أكثر أقوالهم: اترك هؤلاء الناس ولا تتعب معهم، فوالله لقد كلّ وملّ من قبلك ولم يصلح من أمرهم شيء، أو أن يقولوا مثلاً: ما كلفك الله هذا، إن هذه الدعوة ستجر عليك الوليات من المعادين وأعداء الله.

ولدى سرد تاريخ الناجحين في الدعوة، فلا أكاد أعلم أحداً إلا وقد حاول معه بعض المحبين بمثل هذا الكلام، ابتداء من رسول الله ﷺ لما حاول معه أبو طالب ولم تنجح المحاولة، إلى شيوخ معاصرين.

ومثل هذه المحاولة كما جربت مع الدعاة فهي مجربة مع كل مجدد سياسي أو مصلح، ولكن النجاح لا يتحقق إلا بتجاهل هذا الكلام وأمثاله، وأن تمضي قبلاً نحو هدفك، فما نجح من نجح إلا بالإصرار على تحقيق هدفه، قالها رسول الله قبلك فقلها أنت لتنجح.

كما روى هذا عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فأنه عن أذاننا، فقال: يا عقيل! اثني بمحمد فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي! إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم، فأنته عن ذلك، قال: فحلق رسول الله ﷺ بصره إلى السماء. فقال: «أَتَرُونَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟». قالوا: نعم قال: «مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي مِنْهَا شُعْلَةً»، قال: فقال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي. فارجعوا^(١).

وإلا فحدثني: ما صفة المصلح؟ أليس هو من يغير مسارات ألفها عامة الناس؟ أمّا غير المصلح فهو ماش مع التيار الجارف، وبتجاه يمشي فيه الغالبية العظمى.

إن إصرار الداعي إلى الله وعزيمته على طريق الرشاد ليثلج قلبه ويفرحه بنصر الله، وإن لاقى في بداية الطريق اللأواء والعناء، فإن نهايته إلى خير.

وانظر إلى عروض كفار قريش على النبي ﷺ، لما أرادوا أن يثنوه عن الدعوة، عرضوا عليه: إن كان يريد مالاً أن يزودوه بالمال، أو ملكاً نصّبوه

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، برقم: ٦٨٠٤، وحكم الحافظ ابن حجر على إسناده بالحسن، انظر: المطالب العالية ١٧: ٢٥١، وقال محقق مسند أبي يعلى: «إسناده قوي».

عليهم، أو زواجاً زوجوه أجمل النساء...

أجل والله، هذا شأن المثبتين دائماً، لا أنكر أن لهم طرقاً كثيرة في تحويل طريق الداعي إلى الله، فقد تكون بإظهار النتائج السلبية المتوقعة لديهم، وقد تكون بتحويل الهدف، فالوائق بربه من لم يصنع للمثبتين، ولم يؤثر فيه كلامهم عن العقبات والبلايا، بل همه رضاء الله تعالى وحده.



القاعدة الثانية والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن العبرة عند الداعية للمقاصد والمعاني،
 لا الألفاظ والمباني**

من أقرب الأمثلة في واقعنا المعاصر علماء السلطان، فهم في كل بلد بما يتوافق مع منهج البلد السياسي، فالبلد الذي مشى حكامه على التصوف البدعي ترى علماء سلطانه يدندنون بالتصوف دائماً، ويتبجحون بأقوال العارفين، وكلام أهل الزهد، والتبجح بمصطلحات القوم، وعلى العكس من ذلك، تجدهم في البلد الذي درجت سياسته على المنهج السلفي المعاصر يزايدون على الناس بالانتساب للسلف، وأقاويل السلف، وفهم السلف، ورمي الناس بالبدعة، ومحاوله المجاهرة والتظاهر بالالتزام بالسنة، وهلم جراً. والعاقل الفطن من لا يلتفت إلى هذه الشعارات مهما زادت وعلا صوته، والعبرة عنده بجوهر الدعوة لا بالقشور والظواهر التي تركز عليها التوجهات السياسية.

وقد دخل النبي ﷺ المدينة وكان اسمها يثرب، فغيره إلى المدينة، ولم يسمها دولة الإسلام، لأن المعول عليه عنده هو المضمون، وهو أن تكون دولة إسلامية حقيقية، وأصحابها مسلمون صادقون، أما في زماننا، فكم رُفع شعار مكتوب عليه «لا إله إلا الله» أو «الله أكبر» أو «محمد رسول الله» ولم يطبق تحت الشعار عُشر مِعْشَار الإسلام، وربما وجدت من بعض العناصر ما

يخالف منهج الإسلام وتعاليمه وروحه، بل بعض ما يشوه سمعة الإسلام، حتى إنك لتقول: ليت الشعار لم يوضع، لئلا ينخدع به من لا يعرف الإسلام فيسيء الظن بهذا الدين العظيم.

وما أروع مثال الوثيقة التي كان يملئها سيدنا رسول الله ﷺ على سيدنا علي رضي الله عنه، وكان لفظها الأول: «هذا ما عاهد عليه رسول الله...» فقال المشركون: «لو نعلم أنك رسول لاتبعنا! لكن اكتب: هذا ما عاهد عليه محمد...» رضي الله عنه، وعندها دبت الغيرة في قلب سيدنا علي رضي الله عنه، وأبى أن يمحوها، ولكن النبي ﷺ نظر إلى الجوهر المطلوب: أهو إلزام الكافرين بلفظ هم به كافرون؟ أم أنها وثيقة تسحب كثيراً من المنافع إلى المسلمين؟ فكان جوابه الحكيم بأبي وأمي: «مُحَمَّدٌ يَا عَلِيُّ»، ثم محاه النبي ﷺ بيده الشريفة^(١).



(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٩٩، ومسلم برقم: ١٧٨٣.

القاعدة الثالثة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن أُلحظ قوة التلقي من عيون الناس،
وَألا أُطيل بالنصح وإن صرحوا ورحبوا
بالزيادة

كانت في بيتي زرعة من الخضروات الداخلية، ودخلت الغرفة يوماً
فرايتها في النزع، وهي تئن بجسم نحيل مصفر ذابل، سارعت إلى طبيبها
المهندس الزراعي، فلما حضر حاولت تبرئة نفسي من التقصير قائلاً:

والله يا سعادة المهندس: إنني لأسقيها كل يوم، وما قصرت يوماً برِّيها، هز
رأسه وضحك، وقال: بهذا السبب أمتّها؟

ما كنت أحسب أن كثرة الشراب يقتل الزرع! ولا كنت أعرف أن كثرة
النصح يسقط الدعوة!

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا
أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكّرْتَنَا كل يوم؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني
أكره أن أملككم، وإني أَتَحَوَّلُكُمْ بالموعظة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يَتَحَوَّلُنَا بها،
مخافة السامة علينا.

أجل؛ لما سمع أصحاب ابن مسعود رضي الله عنهم كلماته الغيورة طربوا لنصحه -
وحق لهم، لأنه الشاب المتلقي في مدرسة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه -

وتأقت أنفـس المستمعين لزيادة الجرعة منه، وما احتملت أنفـسهم السكوت، فأرض قلوبهم عطشى تحتاج المزيد، هذه نظرتهم، فقد قالوا له: لوددنا أنك وعظتنا في كل يوم.

لكن نظرة ابن مسعود رضي الله عنه كانت أبعد وأعمق، وكأني به يقول: ومن قال بجواز إعطاء الماء للأرض ما دامت تشرب الماء؟ ومن ذا الذي أجاز رضاع الطفل بقدر ما يأخذ الثدي؟

إن الأم لأعرف بكمية طعام ولدها من نفسه، ومتى أعطته فوق ما يصلح له عاد بالضرر على جسده، وقد يرد جميع الطعام الذي تلقاه، وكذلك الداعي البصير، قد يرى من المتلقين حب الزيادة، وخبرته تقول له: قف ها هنا، فقد كفتهم هذه الوجبة من التوجيه، ولو زدت لقتلهم الدسم! وكم نفر أناس من طول النصـح!

ما أقبح الغفلة في الداعي! والأقبح منه أن يحسن الظن بنفسه! أيمـلّ الناس حديثك وأنت تظن أنهم سعداء به!

جاء في «رسالة المسترشدين» للحارث المحاسبي^(١): «واعلم أنه كما لا يغني ضوء النهار الأعمى، كذلك لا يستضيء بنور العلم إلا أهل التقى، وكما أن الميت لا ينفعه الدواء فكذلك لا يفيد الأدب في أهل الدعوى، وكما لا ينبت الوابل على الصفا كذلك لا تثمر الحكمة بقلب محب الدنيا».

أي فائدة ترجوها من إنسان ملّ حديثك، أو زهد في كلامك، أو نادى قلبه عليك: ليتـه سكت، إن على الداعي أن يكون لمّاحاً فطناً، يعطي الكلام

لمن يستفيد منه أو يفيد، فإن لمح الملل في الوجوه وجم، فضلاً عن أن يرى التصدي للرد عليه ومراد جدله بسبب الصد والملل من حديثه.

بل الدواء الأنجح أن يسكت وقلوب الناس تهفو إلى كلامه، وأن يُحجم وأعين الحاضرين تتطلع إلى خطابه، أما أن يتوهم ضرورة إلقاء الكلام على الناس ولو أبدوا امتعاضهم فهذا ممن لا يعرف قيمة كلام نفسه، فكيف يعرفه الحاضرون؟ والشيء إذا جاء بغير قيمة ظهر الرد عليه ورميه، بل ربما يصل إلى احتقاره.

وأسعد الناس بمعرفة هذه الآداب حملة ميراث النبوة، فالله الله بميراث النبوة أن يرمى دون أن يلتقطه الحاضرون بقلوب متلهفة.

إذا لم تكن الفطنة شعار الداعية فلا تأمل منه كبير أثر، ومن الصفات الواجبة في حق الأنبياء: الفطنة. ومثلهم وُرائهم، يعرفون وقت الإحجام ووقت الإقدام، وقد ركل منهما في مناسبه.



القاعدة الرابعة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن أخطب الناس بما ترتاح إليه
قلوبهم ولا ينفر منه سمعهم

يقول بعض المفكرين: لا تقل للناس: «تعالوا لنُغَيِّرَ» بل قل لهم: «تعالوا
لنُحَسِّنَ».

أي وربي! الطلب الأول مرير على النفس، شديد على القلب، يعطي
صورة مبطنة للناس بأنهم على خطأ أو ضلال ويحتاج الأمر منهم إلى التغيير،
أما الأخير: فيريح أنفسهم بأنهم على خير، وليسوا ماشين في ضلال ولا عمى،
ولكن التحسين أمر حسن، وهم يحبون التحسين.

إن معرفة خطاب الناس أمر في غاية الأهمية، فتجد اثنين من الناس،
كلاهما يبحث على أمر واحد:

أحدهما: يسمع الناس كلامه، ويطبقون أوامره.

والآخر: ينفرون من حروفه، ويناصبونه العدا، فعلى سبيل المثال:

الأول يقول للناس: يا أهل الإيمان إن قلوبكم لتتوق إلى خالقها،
والحق جل في علاه لا يقبل إلا من قلب خالص، ألا نراجع أنفسنا في
الإخلاص.

والآخر يضربهم بقوله: ما أقل الإخلاص فيكم! ألا ترون أن حظوظ

النفس هي التي تقودكم اليوم.

وتأتي إلى بعض الدعاة شبهة، وهي أن الواجب على الداعي أن يرسل ما لديه من قول، دون التفات إلى الناس، فليس الناس هم من يُملُون عليه ما يقول، ولا من يوجهون دعوته، وربما قال بعضهم: سألقي ما لدي من كلام دون التفات إلى رضاء الناس، سواء أزعجهم أو أرضاهم.

هكذا الشبهة تأتي، وكأن الذي يبحث على دماثة الألفاظ وحسن الانتقاء متهم بالانقياد إلى أهواء الناس، وتفصيل الكلام على حسب ما يرضي السامعين.

لا والله، ليس هناك ارتباط بين قول الحق والفظاظة، ولا بين صياغة العبارة اللائقة والنفاق للناس، ولكن الناجح من اختار اللفظ الذي لا يثير الحساسية، ولا يحرك كامناً موجعاً.

ولقد كان من أمثلة شيخي الجليل العلامة الداعي إلى الله بنجاح باهر سيدي الشيخ عدنان السقا رحمه الله (ت: ١٤٤٢ هـ) أن قال لي مرة ضمن حديث طويل: الماء هو الماء نفسه، ولكن الأقدمين كانوا يقدمونه بكأس من فخار، واليوم وُجدت كؤوس الكريستال، ألا نقدمها بالوسيلة الجديدة المحببة إلى النفس؟

الدعوة لن تتغير ولن تتبدل، لن أقول لتارك الصلاة ابق على ترك الصلاة، ولن أفتي مانع الزكاة أن يثابر على منعه، ولكن تغير الزمان سيفرض علي أن أغير العبارة التي لم يعد يألفها الناس إلى العبارة المحببة.



القاعدة الخامسة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:

أن أحرص على العبادة الشخصية والدعوة، وعند تعارضهما أن أقدم الدعوة على العبادة الخاصة، وأقدم ما ينفع الأمة على ما يقتصر نفعه علي

في حياة طالب العلم يكثر التزود من العلم في البدايات، ويكثر معها الطاعة والعبادة الشخصية، وينخفض نسبة الدعوة والتعليم حينها، ثم مع تطور الوقت يميل المؤشر إلى العكس، فيقل التزود من العلم، وتقل العبادة الشخصية، لكن ترجح كفة دعوة الناس، حتى إذا طال الأمد، أو رجحت الكفة بصورة ضخمة، أو ذاق الداعي اللأواء والتعب من المدعويين، أو رأى غيره من العامة أرجح منه كفة في مجال العبادة الشخصية شعر بالتقصير وقتها، وكثيراً ما يحاول اتخاذ قرار التخفيف من الدعوة، والتوجه نحو القربات من تلاوة وتهجد وصلاة وذكر، وهنا تأتي الوصفة الصحيحة:

يجب على الداعي أن يكون له تزود من العبادة الخاصة، لا ينفك عنه، ولا يخفئه إلا في حالة: وذلك عند تعارض العبادة الخاصة والدعوة، علماً بأن الدعوة من العبادة، وإذا ما وضع في الميزان: العبادة الشخصية في كفة، والدعوة إلى الله في كفة أخرى ترى أن الدعوة ترجح، وذلك لأن العبادة نفعها خاص، أما الدعوة فنفعها متعدّد، ويقدم المتعدي على اللازم.

كتب العلامة الشيخ مصطفى السباعي (ت: ١٣٨٤ هـ) رحمه الله، في معرض الحديث عن شيخه الشيخ أحمد الحارون (ت: ١٣٨٢ هـ) رحمه الله، قال: «قلت له ذات مرة وأنا غارق في القضايا العامة من سياسية ودينية: إنني متألم لحرمانني من ساعات فراغ أتهجد فيها، أو أخلو فيها إلى نفسي، أو أقرأ القرآن قراءة تدبر وتفهم، فكيف السبيل إلى الجمع بين التعبد وبين العمل السياسي والإصلاحي؟ فأجابني على الفور: وهل يقلُّ أجر العمل الذي تقوم به عن أجر العبادة والتهجد والخلوة؟ إنَّ ما أنت فيه عبادة من أكثر العبادات ثواباً، فلا تندم على ما أنت عليه.

لم أكن أنتظر من شيخ متصوف مبتعد عن الدنيا وعن الجاه والشهرة أن يقول لي مثل هذا الجواب، فلما سمعته منه ازددت يقيناً بأنني إزاء رجل من الهداة الذي يفهمون الدين حق الفهم، ويفهمون خطورة العمل الذي نؤديه حق الفهم، فازددت به إعجاباً، وازددت له حباً وتقديراً»^(١).

فلا يفلح طالب العلم والداعي إلى الله بدون عبادة شخصية، كما لا يفلح بدون دعوة، ولكن عند التصادم بين الواجبين فإن ما يتعدى نفعه يقدم على ما يكون شخصياً.



(١) انظر كتاب: رجال فقدناهم، ١: ١٩٤.

القاعدة السادسة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**ألا أتحمّس للمدعو بأكثر من تحمسه
 لنفسه**

الحرقه في قلب الداعية حالة صحية يشكر عليها، وما من داع مخلص إلا وله حسرات وزفرات عند كل مخالفة لله يراها، فضلاً عن رؤية المخالف أمامه يتحرك بالعصيان، ومن أهم وظائف الداعي إلى الله تعالى أن يقدم الدعوة لمن يحتاجها، ولا سيما إذا كانت المخالفة الشرعية أمامه حاضرة تمارس.

قلت: إن حماس الداعية لأمر محمود، لكن هذه القاعدة خاصة بمقدار الحماس للدعوة، وهو أن يبلغ أقصاه وأعلاه كحماس المدعو لنفسه، وأرى أنه متى زاد في نفس الداعية وزاد فوق حماس المدعو لنفسه انقلب إلى مضرة.

ولقد كان من سيرة النبي ﷺ في بادئ الأمر أنه بذل للدعوة قصارى جهده، وزاد الجهد عن القدر اللازم الذي يجب أن يكون، فكاد أن يهلك نفسه، فنهاه الله تعالى، بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿لَعَلَّكَ بَنِعْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وليس بدءاً من القول أن أقول: إن كثرة التحمس تجاه شخص لم يتحرك لنفسه ربما يعطي تساؤلاً لدى هذا البارد مع نفسه، وأول ما يسول له الشيطان في هذا الزمن المملوء بالماديات، البعيد عن الاحتساب، أن وراء حرارة دعوة الداعية فوائد ومصالح ستتحقق، وربما تخطر بباله كل فكرة سيئة، وظن فاسد، مع استبعاد فكرة طلب رضوان الله تعالى من فكر الداعية. يقول بعض الدعاة: أظن نفسي أنني نجحت - وأعوذ بالله من التبجح ومدح النفس - في مواطن أصرح فيها للمدعو بأمر كثيرة:

منها: أنني لا أبتغي إلا وجه الله تعالى، ولولا الله لما دعوته.

ومنها: أنني غير مستفيد من صلاحه ولا انحرافه، وإن صلاحه سيعود على نفسه أولاً وآخراً، أما العدد الكلي لسكان الأرض فلن يكون فيه كبير تأثير ولا تعسير من توبة شخص أو فساد آخر.

ومنها: أنني لست أغير عليه من نفسه، فإن اقتنع فليعمل بقناعته.

ومنها: إيقاظ إحساس الخشية والخوف من الله، إلى جانب الحب والرجاء لله.

وهذا بخلاف التعامل مع المقبل على الدين، المتعطش لريّ الدعوة، فإن الحكمة تفرض أن يعامل بتفان يشبه تفانيه، وإقبال يضاهي ما إقدامه، أما المعرض أو المتردد فإن علاجه أن يتحمس الداعي له بقدر ما يصل إلى درجة حماسه لنفسه، وألا يزيد، والسلام.



القاعدة السابعة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن أبحث عن أفضل صفة فيمن
 أدعوه، فأصرح بها، ثم أنطلق في
 نصيحتي**

شأن الداعية الذي يريد البناء والإصلاح في المدعو أن يبحث عن النقاط الإيجابية فيمن يدعوه، ويعزز الجانب القوي عنده، ثم من تلك النقطة ينطلق نحو تمة بناء الخير.

هكذا يفعل ذوو الخبرة والعلم النافع، والتربويون الذي يحسبون أبعاد الحروف كما تحسب ذرات ميل المكحة إذا أدخل العين، فإنهم يضعون المجهر على أحسن نقطة في المدعو، ليطلبوا النقطة التالية، ويصرحون بأجمل الخصال لديه، لتكون أساساً لما فوقها، وربما أثنوا على الشخص بكليته، لأنهم يتعاهدونه بالتربية بشكل دائم، كما مدح الرسول ﷺ عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقوله: **«وَفَضَّلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضَّلِ الثَّرِيدَ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»**^(١).

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استأذن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب، فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي ﷺ يضحك، فقال: أضحك الله سنك، يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فقال:

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١١، ومسلم برقم: ٢٤٣١.

«عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ»، فقال: أنت أحق أن يهبن، يا رسول الله، ثم أقبل عليهن، فقال: يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولم تهبن رسول الله ﷺ فقلن: إنك أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إِيْهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»^(١).

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ حين ذَكَرَ في الإزارِ ما ذُكِرَ، قال أبو بكر: يا رسول الله، إن إزارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدٍ شِقْيَاهُ؟ قال: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ»^(٢). أي: لست من الذين يسبلون أزهرهم خيلاء.

وهذا بخلاف من ليس لديه كبير علم في التربية، فضلاً عن العوام، فيرى أحدهم مخالفة من متدين، كأن يراه مصلياً، ثم صاح بوجه كبير في السن، فعندها يمسك بأحب الخصال وأجودها، وأقربها من الله وأحسنها، ويلوح بأكبر فضيلة عنده، ويسأله: ألسنت تدعي أنك من المصلين؟ لا والله، لو تركت الصلاة وحسنت خلقك مع الكبار لكان أحسن.

ويرون المرأة المسترة المحجبة وقد أساءت من جانب، فيعيرونها من الحجاب متسائلين: أأنت المحجبة وتفعلين ذلك؟

وينتج عن مثل هذه الممارسة خطأً جسيماً عظيماً، ألا وهو الشعور بالانقسام السلوكي، ويضطرب الإنسان داخلياً، وبما أنه قد جبل على الخطأ، وفي كل مرة يعير في أمر محدد، مثلاً: أأنت الملتحي وترك السنة القبلية؟ أأنت

(١) رواه البخاري برقم: ٦٠٨٥، ومسلم برقم: ٢٣٩٧.

(٢) رواه البخاري برقم: ٦٠٦٢.

الملتحي وتصيح بوجه ولدك؟ أنت الملتحي ولا تصلي في المسجد، فيرى عندها أن اللحية أصبحت داء وعبء على قلبه، وأفضل طريقة لعلاج هذا الانفصام أن يتخلى عن الخصلة التي تميزه عن غيره من خصال الخير، لأنه يوجه إليه العذاب من كل جانب، في الوقت الذي يعفى منه غيره، فلا يلتفت لكبائر غير الملتحي، ويوضع المجهر على دقائق أمر ذي اللحية، وأهون طريق أن يحلق لحيته وينتهي.

وما أهون الأمر إن كان في لحية ولم يكن في التخلي عن الدين بالكلية! وقد تصيب المريض أزمة جديدة ألا وهي: تقديم القرابين للناس كي يتبرأ من التاريخ القديم، فيظهر أنه بريء من الدين، بل ناقد عليه عن قناعة وإصرار، وما ذلك إلا لشعوره بالنقص والتعير عندما كان يسلط عليه مكبر المصورة، ويجسم خطؤه الصغير.

وما من شيء أحب إلى النفس من المدح، أليس هو مفتاح القلوب؟ فكيف يفتح الداعي قلب من يعظ؟ إنه ذكر المحاسن، ومنه الانطلاق لتكميل البناء وإسداء النصيحة.



القاعدة الثامنة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن أتعلم في تحليل نقاط القوة
والضعف فيمن أدعوه

أحياناً يطرح الناس اسم داعية متألق، فتسأل: ما سبب نجاحه؟ فيبادر بعض الحاضرين إلى الجواب الجاهز: هو الإخلاص.
فتسأل: أليس الشيخ فلان مخلصاً؟
فيقولون: لكن لا يخرج لمنصات التواصل الاجتماعي والتلفاز مثل ذاك الشيخ.

فتقول: لكن فلاناً الثالث مخلص فيما نحسب، ويخرج في وسائل التواصل والتلفاز.

فيجيبك: لكن أسلوبه قاس.

وهكذا يستمر الحديث والحوار.

عند ذلك أستنتج أن عوامل النجاح عند الداعية الحكيم كثيرة، فليس هو الإخلاص وحده، بل معه أنه يخرج في الإعلام، وأن أسلوبه طري سهل، وأنه كذا وكذا.... أسباب كثيرة.

من هنا يمكنني أن أسطر قاعدة فأقول: إرجاع الأسباب الكثيرة إلى سبب واحد خطأ من أخطاء التفكير تتولد منه نتيجة مشوهة.

ثم أحول الحديث إلى تحليل نقاط القوة والضعف لدى المدعو، فمن المهم

استحضار الفروق بين شخصين اثنين مثلاً:

أحدهما: جامعي، تاجر، ثري، عنده البيت، والسيارة، قادر على شراء الكتب، حوله أسرته، متزوج، رزق بالولد، وهلم جراً...

والآخر: عامي، فقير، يتكفف الناس، يؤمن لقمة العيش كدّاً، ويتحایل على الحياة، مضطهد في أسرته، عَزَب متأخر الزواج كثيراً، غير موفق في عمله، وهكذا....

فمن الخلط القبيح أن يخاطب الداعي هذا كذاك، وأن يعظ الأول كالآخر، وأن يحدّث كليهما بالحديث نفسه، فأبي صبر تحدّث الأول عنه؟ وأبي حساب وعقاب عن النعيم سيسمع منك المنكوب الثاني إذا كان غير راض عن حياته، وناقماً على مجتمعه، ويرى النقص في نفسه وبدنه وسائر أحواله؟

أصعب شيء على النفس البشرية هو التوازن، فالجنوح سهل لا يحتاج إلى كبير تعب ولا عناء، ولكن الانضباط هو الشاق، هيهات من يقرب إليه عدد من أنواع الحلويات ولا يأخذ غير قطعة واحدة مراعاة للصحة وتوازن الغذاء، كم من الناس من يداوم على صلاة ثماني ركعات في كل يوم قبل النوم؟ مع أنهم يصلون العشرين في كل ليلة من ليالي رمضان! الطفرة سهلة المنال، والدوام والاستمرار هو الشاق، لأنه توازن.

إذا كان الأمر بهذه المشقة في حالين من أحوال الإنسان فكيف تكون صعوبته في خطاب واحد أمام مدعوين قد جلسا لسماع كلامه؟

هنا تكون حكمة الداعي، الذي حلل حال المخاطب، ثم انتقى له ما يصلح شأنه.

القاعدة التاسعة والثلاثون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
أن أتكلم حين يطلب الكلام مني،
وأفرح لتقديم غيري من الدعاة، مع
الإنصات وحسن الاستماع

إن أداة الدعوة الرئيسة هي الخطاب والكلام، وما أجمل الداعي إذا أحسن الكلام والاستماع، لكن ما أخسر مؤثري السكوت في كل حال، وما أقبح عشاق الكلام، وهما حالتان غير جيدتين:

الأولى: دعاة يسحبون بالسلاسل للكلام فيؤثرون الصمت، ويظهرون التواضع، ويعتذرون للناس.

والأخرى: دعاة بينهم وبين مكبر الصوت قصة عشق لا تنتهي، فإذا حضر في المجلس أجبرته قدماءه أن يجلس صدر المجلس، ويتهيا للكلام بين يدي الناس، ويا لهول الساعة إن أهمل مقدم الحفل تقديمه! ويا غارة الله جد السير مسرعة إن تقدم للحديث من لا يملأ عينه هو.

أي مكانة لرجل يرى نفسه مبلغاً عن الله يتآمر شباب الدعوة على إغضابه بأمر من الأمور، فما أتفه الموقف الذي حدثت عنه من بعض طلبة العلم، عن بعض عشاق الثرثرة والتشدد:

فمرة جعلوا يلعبون بمكبر الصوت علواً وانخفاضاً حتى ظهر الصغير

وغطى على حديثه وشوش الخطبة الملوثة بغبار الرياح.

وثانية: رأوه قد هياً نفسه للحديث فقدموا غيره.

وثالثة: أطالوا ببرنامج الحفل من نشيد وأشعار حتى عاش الفترة على أعصابه ثم ختم الحفل بإقامة الصلاة.

ورابعة: قاطعوه بسؤال عن حديث فلما أفتاهم أنه موضوع قالوا وجدناه في كتابك الفلاني.

وخامسة: قدمه أحد المقدمين بألفاظ يبغضها، ليس فيها التقديس والتعظيم والتبجيل، ومعاذ الله أن يكون فيها الاحتقار له، ولكنه عود نفسه أن يسمع من الناس ألفاظ العظمة والرفعة، فما استساغت أذنه سماع الأقل والأدنى.

وأخرى: قضا أثناء كلمته بالتشويش والحديث والتغامز والضحك وتقديم بعضهم للجلوس في الأمام، فيرد عليه زميله المقدم بالتعفف، وهكذا... ليسكتوا ذاك الثرثار ويقطعوا عليه خطبته الممجوجة.

أهكذا يكون التبليغ عن الله؟ أيرضى حفيف أن يكون في أعين الناس بهذا الموقف الغليظ؟ أليس لديه المانع أن يرى كلامه مرمى عند أحذية الجلوس؟

وعكس هذا ذاك الذي يحجم حيث يطلب منه الكلام، ويسكت عند لزوم التعليم، ويتحسر من كلام فلان إذا أخطأ، أو ذاك الوصولي إن تكلم وأفقى!

ولوراجع كل داع نفسه في الفائدة المرجوة من الحديث والكلام بين يدي الناس، لكان معتدل الخلق متوازن النفس، يفرح عند تقديم إخوانه الدعاة، ويلبي إن طلب منه الكلام، وينصح إذا رأى القلوب متلقفة للنصح، ويحجم إذا لم ير المناسبة للحديث، ولكن سحر الغرور يُحَيِّلُ لصاحبه أن أسمع الناس تسعى لكلامه دائماً.



القاعدة الأربعون

علمتني الدعوة إلى الله تعالى:
**أن لا أفرض طريقتي في الدعوة على
 أحد، ولا أنكر مسلك غيري من الدعاة،
 فإن لم تعجبني طريقة غيري في
 دعوته انسلت من مجلسه برفق دون
 تشويش ولا لفت انتباه**

حدثني خالي الأستاذ عاطف البيانوني أنه كان حاضراً في ليلة من ليالي إحياء شهر رمضان في العشر الأخير في مسجد أبي ذر العجمي في حلب، وليالي الإحياء عند شيخ المسجد الشيخ أحمد البيانوني (ت: ١٣٩٥ هـ) رحمه الله كانت ذات برنامج متكامل، تحتوي ليالي الإحياء عنده على: تلاوة للقرآن الكريم، ودرس وعظي، وصلاة مطولة، ودعاء وتبتل، ومن الجملة نشيد إيماني منتقى على يد شيخ ذاك المجلس، وعندما وصل برنامج الإحياء إلى النشيد سارع أحد الدعاة من صدر المجلس إلى آخره بصورة لافتة لنظر الحاضرين، وأخذ مصحفاً وجلس يقرأ القرآن وهو يتمايل.

أقول تعليقاً على هذه الحادثة: لو كانت لدى هذا الرجل حكمة عميقة لما انفرد عن الناس ولفت انتباههم وخالف برنامج الجماعة، ويسعه أن ينسل من بينهم دون تشهير بالموقف، وربما افترق الناس وهاجوا متحيرين: أنحن في سياق هذا البرنامج أقرب إلى الله؟ أم ننسحب كهذا الرجل؟.

وقد سمعت من اعترض على مثل هذا وقال: أليست تلاوة القرآن أفضل من النشيد؟ فأجبت: بلى، هو الخير من حيث الأصل العام، وأما في سياق هذا البرنامج فإنه من الحسن وإنجاح الفكرة أن يدخل شيء من النشيد للترويج عن النفس، فتجدد النفس نشاطها، وترجع إلى القرآن بنشاط عارم، فامتعض وقال؟ النشيد خير من القرآن؟ قلت: لم أقل لك النشيد خير من القرآن بإطلاق، وحاشا أن يكون كذلك، وسأتيك ببينة:

أليس كلام الله هو خير الكلام؟ الجواب: بلى، ومع ذلك وجب على القارئ أن يتوقف عن القراءة ويجيب المؤذن؟

وأوضح من هذا ما ثبت في الحديث الصحيح في سنن النسائي: عن عائشة قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً فقال لأصحابه: «تَقَدَّمُوا» ثم قال لي: «تَعَالَى حَتَّى أُسَابِقَكَ فَسَابِقِي فَسَبَقْتُهُ» ثم خرجت معه في سفر آخر، وقد حملت اللحم فنزلنا منزلاً فقال لأصحابه: «تَقَدَّمُوا» ثم قال لي: «تَعَالَى أُسَابِقُكَ» فسابقني فسبقتني فضرب بيده كتفي وقال: «هَذِهِ بِتِلْكَ»^(١).

والسؤال: لِمَ لَمْ يغتنم النبي ﷺ الفرصة بتلاوة القرآن في طريق السفر مع زوجه؟ أليست تلاوة القرآن خيراً من السباق؟ الجواب: تلاوة القرآن في وقتها هي الأفضل، والسباق في هذا الموطن فيه خير كبير.

إن تحويل العبادة عن مكانها لرزء شائن، وكم أساء من ابتدع قراءة القرآن في الركوع أو السجود، كمن ذكر الله وسبح وقرأ القرآن والخطيب

(١) رواه أبو داود برقم: ٢٥٧٨، والنسائي في السنن الكبرى برقم: ٨٨٩٤ وهذا لفظه.

يخطب الجمعة، أو شرع في نفل مطلق من كان قادراً على إنقاذ غريق.

وخير العبادة كما شرعها مشرّعها المصطفى ﷺ، في الوقت الذي حددها،
فمن كان في وقت يتسع لأكثر من عبادة فلا يعترض على أخيه في اختياره،
كما لو اجتهد مجتهد في طريق الدعوة فليس للآخر أن يفرض طريقه عليه،
وخير الصاحبين من كان متسعاً لأخيه أكثر، فيما ساغ فيه الاجتهاد.



هذا، وأسأل الله تعالى العليّ القدير، أن يكتب النفع بهذه الحروف
 اليسيرة، وأن يجعلها لي ذخراً، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
 بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وأن يكتب ثوابها في صحيفة كل من كان
 سبباً في طلبي للعلم، أو أعانني على العلم وخدمة الدين، وأن يرفع أقدار
 والدي في الدارين، وكذا شيوخه، وإخوتي وأحبابي، وآخر دعوانا أن الحمد لله
 رب العالمين.



كلمات سريعة من خلاصة كتاب: هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى

وبجانب كل فائدة رقم القاعدة:

من القاعدة ١:

١: من الناس من فهم أن الدعوة هي التدريس والوعظ، وهذا لعمر الله قد قزّم مفهوم الدعوة، وحكم على كاملها ببعض أجزائها.

ومنها: ٢: ببذله ﷺ كل ما يملك من وقت ومال وجهد وتضحية وإصرار وصل إلى ما وصل إليه من نجاح الدعوة، ما كان يرضى أن تفوته جنازة امرأة تنظف المسجد، شأنها في أعين الناس صغير، ولا يأبى إن طلبته الأمة ليحل لها عسراً، أو يفك لها معضلة.

ومنها: ٣: ومتى كانت الدعوة بعد جميع متع الدنيا، فكبر على نجاحها أربعاً، وإن شئت فسيباً.

ومنها: ٤: لقد جرت السنة عند الله تعالى أن لا يتوصل إلى عوالي الجنة إلا الباذل، ولا يصل إليها متكئ على أريكته.

ومن القاعدة ٢:

لا والله لا يستوي أثراً من أنفق من ماله في سبيل الدعوة، ودعا الناس إلى الرشاد، ومن عرف الناس أنه في دعوته يؤدي وظيفة يتقاضى عليها الأجر.

ومنها: إن الذي يخاطب الناس بقوله: لا أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أوقع في النفس من غيره باتفاق، وفي كل خير وبركة.

ومنها: من استطاع أن يبذل في الدعوة من خالص ماله فيها ونعمت، ومن لم يستطع فنال أجراً على دعوته بكرامة وحفظ ماء الوجه فلا حرج، وليس بعد هذا مثقال حبة خردل من سماح، فإن الله لا يأذن أن تذلل الدعوة وأن يتندر بالدعاة على السنة الأشقياء.

ومن القاعدة ٣: من نجاح الداعية أن يؤمن البديل الصحيح، ومن الأمثلة المعاصرة وجود أناشيد الأفراح بدل الغناء الماجن.

ومن القاعدة ٤:

إن من سوء الأسلوب الواحد لدى القدوة - وما أكثر مساويه - أنه يعطي الجواب للسائل دون سؤال، كمن قال لوالده: إنك لن تأذن لي بتنظيف المسجد مع أصدقائي. علماً من الابن أن والده مجبول على المنع.

ومنها: ما نوع داعية ولا مرب في أسلوبه إلا لنجح، ولا اقتصر أحد على نمط واحد إلا تعثر، والناجح من يعطي لكل حالة تربوية قلباً، وقد لا يتكرر في حالة أخرى أبداً.

ومن القاعدة ٥:

إن شأن جميع الناجحين في التربية والدعوة أنهم ذوو توازن في صرف الوقت، ولهم الملاحظة العميقة في تقديم الأهم على المهم، والعاجل على ما

يحتمل التأخير، والكلي على الجزئي، والعام على الخاص.

ومنها: بثس الطبيب من درس الطب ليتداوى ويداوي أسرته فحسب، فكيف بوارث رسول الله ﷺ؟

ومنها: إن من رام الدعوة المتوازنة اقتدى بخير من دعا وهدى ﷺ، فقد كان يومه مقسماً على أقسام، ولكل قسم أعماله وأشخاصه.

من القاعدة ٦: إن سيد الدعاة ﷺ قد أدى ما عليه من الأمانة على أحسن وجه تجاه عمه أبي طالب، لكن الهداية من الله تعالى.

ومن القاعدة ٧: قد يغفل الكبير عن مسألة صغيرة، ويحتاج للتذكير وإن كان عالماً، كما قد تجد فائدة طيبة في حبة صغيرة وليست تلك المنفعة في قدر كبير من الطعام.

ومن القاعدة ٨: وما أقبح الجهل في الدعاة، والغفلة في الوعاظ، إذا كانت في لوحات الله القرآنية، وتنبيهات الملك التحذيرية.

ومن القاعدة ٩: إن مثل الداعية السيء الذي يوصل الناس إلى الجنة ولا يدخلها كمثّل الدابة التي يركب عليها الوجيه والتقي، وتوصله إلى أعلى الأماكن وأشرف المناصب، لكن الدابة تربط في إصطبل الدواب ولا تدخل قاعة المؤتمرات.

ومن القاعدة ١٠: دعوة الداعي إنما تبني وتوجه لأخطر الأمراض وأشدّها قبحاً عند الله، ولا يعطى المدعو أموراً كثيرة تشتتته، ولكن يقتصر على الأهم والأكبر والأعظم، ثم يتدرج معه من حيث مستواه.

ومن القاعدة ١١: فلا علاج لسعة الصدر أنجع من الازدياد والغوص في العلم، فكثرة الاطلاع والتزود تورث قلة الاعتراض، وسعة الصدر للمخالف تمنح صاحبها جائزة كبرى، ألا وهي معرفة عظمة الدين واتساعه للناس.

من القاعدة ١٢: الأخذ بالعزيمة قوة وبسالة بشرط أن لا يصل الأمر إلى حد مشادة الدين، لأنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

انتقاء الرخص للناس حسن على أن يبلغ حد الميوعة، فإن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن الإثم إثم، وليس هو موضع مدح.

من القاعدة ١٣: احرص على دعوة الجهال، وتذكير العلماء، ولا تهمل أنصاف العلماء ومدعي العلم، ولكن وطن نفسك فربما كانت نتيجة دعوتك مع الصنف الأخير، كالنبي الذي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد.

من القاعدة ١٤: بخ بخ لمن قدم الأنموذج العملي قبل القول، والمثال الفعلي قبل كل كلام، وتعباً لمن طالب بالحسنى وهو عنها بعيد، وحث على البر وهو في السفاسف شريد.

من القاعدة ١٥: وأقولها وقلبي يعتصر ألماً: كم من مدرسي المدارس الشرعية من زهد الطالب بطلب العلم، وهو يتكلم عن أهمية العلم! أجل والله.

كم ممن بغض العلم وأهله، وشوّه سيرة الرسول الله ﷺ من سوء عرضه، وقلبه مطمئن بالإيمان خائف من ربه.

من القاعدة ١٦: كيف تطالب أن يكون سوقة الناس على الحياد! إذا كانوا متلقين من شيوخ عقولهم ضيقة، وقدواتهم هم الذين يحرضونهم على الانتصار لفكرتهم، ويلقون جلباب الانتصار لله ورسوله فوق آرائهم، فيتحمس الجاهل تحمساً يحسب نفسه أنه على خير، ولا والله: أترأه هو الأجهل أم من يوجهه؟

إذا لم يع الدعاء الاختلاف الفقهي، والاختلاف في دائرة وأسرة أهل السنة والجماعة فكيف يفهمه التلميذ والجاهل؟

من القاعدة ١٧: الداعية يشبه الطبيب قد يعالج بالألفاظ المعسولة وبالابتسام والنكتة والطرفة، وقد يضطر لبتز بعض الأعضاء، وقد يلجأ لفرض الدواء العَلَقَم.

من القاعدة ١٨: ما من عاقل فطن إلا ويقدم الأهم على المهم، والكي على الجزئي، والكبير على الصغير، والضروري على الحاجي في شؤون الدنيا من متاع وربح وخسارة، فكيف بمن تجارته مع الله، ورأس ماله الدين، وهو يخدم هدف سيد المرسلين؟

من القاعدة ١٩: الله الله في انتقاء الكلمة التي تخرج من اللسان، إما أن توبق شخصاً، أو تعقته.

من القاعدة ٢٠: عجبت لمن سمع إجماع الأطباء على ضرر كثرة الطعام وهو مدمن شرس، ورأى شدة ضرر الدخان على الجسد وهو شراب غارق، لكنني عجبي أشد من داع يرى فرصة للدعوة ولا ينبس ببنت شفة، شأنه يشبه الجاهل الذي قال للداعين: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟

بخ بخ لمن نجح في تجارته في كثرة العرض والتسويق واستغلال الفرص، والأرباح منه من لم تفتته فرصة، إلا وفرش بضاعة الدعوة بأحسن تشويق، حتى فازت دعوته، وبث الهداية في الحاضرين.

من القاعدة ٢١: صنعة المزارع تشبه صنعة الأنبياء والمرسلين، لكن صنعة الأنبياء بشكل أشرف وأحسن، لأنها مع بني الإنسان.

وهذا من هدي النبي ﷺ أنه يذكر محاسن القوم أمام بعضهم كي يقتدي بعضهم ببعض وتلقح الثمرة من أختها، ويزداد الخير ويظهر الطعم الحسن من الأول للآخر.

من القاعدة ٢٢: لقد كان من هدي رسول الله ﷺ أنه يأتيه عدد من الرجال، وكلهم يسألون سؤالاً واحداً، ولكن النبي ﷺ لم يصف لاثنتين منهم وصفة واحدة، فضلاً عن الجميع، مع أن السؤال قد اتحد.

ما أقرب مهنة طب العيون من ظاهر صنعة الدعاة، فإنه يأتيه في اليوم عدد من المرضى، كلهم يشتكون وجعاً في العين، ولكل داء دوائه، كما لكل وجع علاجه، فكيف لا يكون لكل مشتك من المدعوين طبه!

بعض الشباب المعاصر يفخر أنه لا يعرف تشغيل الجهاز الحاسب، وبعضهم يفخر بأنه لو تركت يده في غير زقاق بيته لضاع، وما أحوجه إلى التوبة بدل الافتخار!

من القاعدة ٢٣: ما من دعوة متكاملة تألقت إلا وصاحبها مواكب لعصره، يعيش واقعه، وما تخلف عن عصره أحد إلا ظهر النقص في حياته، شاء أو رفض.

من القاعدة ٢٤: أما لباس الشهرة فهو مذموم شرعاً، وأما التميز بالنظافة والتجمل بالثوب الحسن فهو أمر محبوب ممدوح.

من القاعدة ٢٥: أي عمل جماعي اثنان فما فوقه إذا لم يتم بالتطوع، وانصياع كل أخ لأخيه، وكل مرؤوس لرئيسه، فإنه لا بد أن ينهدم.

الضلع متى افترق عن أخيه افتراقاً دقيقاً أصبح زاوية حادة، وتنظر إلى الفرق بينهما فتراه صغيراً، وما أن تمشي معه بضعة أمتار إلا أصبح أحدهما مُشَرِّقاً والآخر مُعَرَّباً.

كم فرَّق الشيطان بين الأخوين في العمل الجماعي تحت شعار الإفصاح بالحق.

العمل الإسلامي لا يعيش إلا في مسلكين: مسلك جماعي، وهذا يحتاج إلى تعاون الإخوة الدعاة فيما بينهم، وتغاضي كل واحد منهم عن زلات إخوته، والتقرب والتناصح وعدم السكوت عن الكبائر، ومسلك فردي: وهو الذي يقتات على مراجعة النفس بشكل دائم، وعرض الأعمال والآراء والأفكار على أصدقاء الطريق الناصحين، وتقويم الخلل، وعدم وقوف الإنسان مكانه.

من القاعدة ٢٦: من رام قوماً يعمل معهم ولا يخطئون فليدجأ إلى مجتمع الأنبياء والمرسلين، لكن شرط الدخول في ذاك المجتمع لا يشمل، فهو من الخطائين، وهم لا يقبلون أصحاب الخطأ.

من القاعدة ٢٧: الداعية صاحب كنز ربانية يريد تسويقه بأحسن طريقة، فلا يصنف الناس إلى مستجيب وغير مستجيب، ولكنه يعرض

بضاعته بكل أداء حسن، وعرض مشوّق، ثم من قَبِلَ فلنفسه، ومن رد فعلها.

في الحياة العملية من خلال تجارب من العلماء والمربين، كم وكما كانت كلمة صغيرة من عالم سبباً في تغيير مسار رجل سوء، وكما وكما نُصح بعض أهل التقوى والإيمان بخطأ واضح بين فكابروا وأصروا واستكبروا استكباراً ولم يستجيبوا، فلا بد أن توطن نفسك للمكابدة عند دعوة الملتزمين.

من القاعدة ٢٨: أكثر الأعمال نجاحاً ما قام على تخطيط العقلاء الكبار، وحركة الشباب والصغار، وقلما استلم الشيوخ الكبار أعمالاً حركية ونجحت، وعلى العكس كذلك: فمن النادر أن ترى أعمالاً تخطيطية ينجح بها الشباب وحدثاء الأسنان.

لقد آتى الله تعالى المرونة العقلية للإنسان الصغير كبحمه الغض، وكلما كبرت سنه زادت قسوة عقله، فالشباب أرسخ في المرونة، وإقناعهم بأي فكرة أسرع.

عند كبر السن وازدياد العقل يصعب تغيير الأفكار، بخلاف الشاب فإنه سريع التلقي والتغيير، فكيف بالعقل إذا وصل إلى حد التكلس؟ إنه من المؤكد صعوبة التغيير والتبديل، إلا أن يشاء الله.

من راعى عقله وسقاه بسقيا المعرفة بشكل دائم بقي عقله غضاً طرياً كأنه الآن ولد، ومن حَجَّرَ على ذهنه وأحكم المغاليق حول عقله، ومنعه التحرك والتشغيل أصيب بالصدأ وإن كان في سن المراهقة.

الخلاصة تكمن: في تركيز الدعوة على فئة الشباب، وعدم ترك الدعوة لمن سواهم، ومحاولة تحميلهم هم الدعوة، فإذا اقتنع أحد من الشباب بالدعوة وتحرك باتجاهها فإن النتائج على يديه كبير وعظيم إن شاء الله.

من القاعدة ٢٩: وما أجمل الداعي إذا بحث عن الفائدة عند من هو دونه، سواء أكان في السن، أو التلمذة، كأن يسمع التوجيه من أحد طلابه.

فحذاري حذاري أن تكبر في عين نفسك، حتى ترى أنك أكبر من سماع من دونك، ففي المختصرات من الفوائد ما لا تجده في المطولات والحواشي، وعند صغير القوم ما لا يعرفه القائد والمرجع.

من القاعدة ٣٠: لو خيرت بين بقاء الإقامة في بلدك وبين الخروج إلى بلد آخر فالأصل بقاء كل داعٍ في بلده، لأن لسانه أفصح في خطاب قومه من غيره. في هذا الزمن كم من الدعاة من لف بلده طوق أمنه على رقبتة، فترك البلد ووجد سعة في أرض الله، واستطاع أن يوصل النفع إلى بلده في طرق التواصل أكثر بمراحل من وجوده في البلد نفسه.

من القاعدة ٣١: ما صفة المصلح؟ أليس هو من يغير مسارات ألفها بعض الناس؟ أمّا غير المصلح فهو ماش مع التيار الجارف، وباتجاه يمشي فيه الغالبية من الناس.

إن إصرار الداعي إلى الله وعزيمته على طريق الرشاد ليثلج قلبه ويفرحه بنصر الله، وإن لاقى في بداية الطريق اللأواء والعناء، فإن نهايته إلى خير.

انظر إلى عروض كفار قريش على النبي ﷺ، لما أرادوا أن يثنوه عن

الدعوة، عرضوا عليه: إن كان يريد مالاً أن يزودوه بالمال، أو ملكاً نصّبوه عليهم، أو زواجاً زوجوه أجمل النساء...

من القاعدة ٣٢: دخل النبي ﷺ المدينة وكان اسمها يثرب، فغيره إلى المدينة، ولم يسمها دولة الإسلام، لأن المعول عليه عنده هو المضمون، وهو أن تكون دولة إسلامية بحت، وأصحابها مسلمون صادقون.

من القاعدة ٣٣: إن الأم لأعرف بكمية طعام ولدها من نفسه، ومتى أعطته فوق ما يصلح له عاد بالضرر على جسده، وقد يرد جميع الطعام الذي تلقاه، وكذلك الداعي البصير، قد يرى من المتلقين حب الزيادة، وخبرته تقول له: قف ها هنا، فقد كفتهم هذه الوجبة من التوجيه، ولو زدت لقتلهم الدسم! وكم نفر أناس من طول النصح!

ما أقبح الغفلة في الداعي! والأقبح منه أن يحسن الظن بنفسه! أيمَلُّ الناس حديثك وأنت تظن أنهم سعداء به!

إذا لم تكن الفطنة شعار الداعية فلا تأمل منه كبير أثر، ومن الصفات الواجبة في حق الأنبياء: الفطنة، ومثلهم ورّاثهم، يعرفون وقت الإحجام ووقت الإقدام، وقدّر كل منهما في مناسبتة.

من القاعدة ٣٤: الماء هو الماء نفسه، ولكن الأقدمين كانوا يقدمونه بكأس من فخار، واليوم وُجدت كؤوس الكريستال، ألا نقدمها بالوسيلة الجديدة المحببة إلى النفس؟

الدعوة لن تتغير ولن تتبدل، لن أقول لتارك الصلاة ابق على ترك الصلاة،

ولن أفتي مانع الزكاة أن يثابر على منعه، ولكن تغير الزمان سيفرض علي أن أغير العبارة التي لم يعد يألفها الناس إلى العبارة المحببة.

من القاعدة ٣٥: لا يفلح طالب العلم والداعي إلى الله بدون عبادة شخصية، كما لا يفلح بدون دعوة، ولكن عند التصادم بين الواجبين فإن ما يتعدى نفعه يقدم على ما يكون شخصياً.

من القاعدة ٣٦: الحرقه في قلب الداعية حالة صحية يشكر عليها، وما من داع مخلص إلا وله حسرات وزفرات عند كل مخالفة لله يراها، فضلاً عن رؤية المخالف أمامه يتحرك بالعصيان، ومن أهم وظائف الداعي إلى الله تعالى أن يقدم الدعوة لمن يحتاجها، ولا سيما إذا كانت المخالفة الشرعية أمامه حاضرة تمارس.

إن حماس الداعية لأمر محمود، لكن هذه القاعدة خاصة بمقدار الحماس للدعوة، وهو أن يبلغ أقصاه وأعلاه كحماس المدعو لنفسه، وأرى أنه متى زاد في نفس الداعية بحيث تجاوز وزاد فوق حماس المدعو لنفسه انقلب إلى مضرة.

ليس بدعاً من القول أن أقول: إن كثرة التحمس تجاه شخص لم يتحرك لنفسه ربما تعطي تساؤلاً لدى هذا البارد مع شخصه، وأول ما يسول له الشيطان في هذا الزمن المملوء بالماديات، والبعيد عن الاحتساب، أن وراء حرارة دعوة الداعية فوائد ومصالح ستتحقق، وربما تخطر بباله كل فكرة سيئة، وظن فاسد، مع استبعاد فكرة طلب رضوان الله تعالى من فكر الداعية.

من القاعدة ٣٧: شأن الداعية الذي يريد البناء والإصلاح في المدعو أن

يبحث عن النقاط الإيجابية فيمن يدعوه، ويعزز الجانب القوي عنده، ثم من تلك النقطة ينطلق نحو تمة بناء الخير.

وما من شيء أحب إلى النفس من المدح، أليس هو مفتاح القلوب؟ فكيف يفتح الداعي قلب من يعظ؟ إنه ذكر المحاسن، ومنه الانطلاق لتكميل البناء وإسداء النصح.

من القاعدة ٣٨: إرجاع الأسباب الكثيرة إلى سبب واحد خطأ من أخطاء التفكير تتولد منه نتيجة مشوهة.

من القاعدة ٣٩: إن أداة الدعوة الرئيسة هي الخطاب والكلام، وما أجمل الداعي إذا أحسن الكلام والاستماع، لكن ما أخسر مؤثري السكوت في كل حال، وما أقبح عشاق الكلام.

لو راجع كل داع نفسه في الفائدة المرجوة من الحديث والكلام بين يدي الناس، لكان معتدل الخلق متوازن النفس، يفرح إخوانه الدعاة، ويلبي إن طلب منه الكلام، وينصح إذا رأى القلوب متلقفة للنصح، ويحجم إذا لم ير المناسبة للحديث.

من القاعدة ٤٠: إن تحويل العبادة عن مكانها لرزء شائن، وكم أساء من ابتدع قراءة القرآن في الركوع أو السجود، كمن ذكر الله وسبح وقرأ القرآن والخطيب يخطب الجمعة، أو شرع في نفل مطلق من كان قادراً على إنقاذ غريق.

المحتويات

٧	مقدمة الطبعة الثانية
١١	القاعدة الأولى
١١	أن الدعوة إذا لم تعطها كلك، لن تمنحك بعضها، فهي لا ترضى أن تقوم على فتات الأوقات، ولا فضول الأموال.
١٤	القاعدة الثانية
١٤	أن البذل للدعوة من مال الداعية الخاص - قدر الاستطاعة - أنجح للدعوة وأقوى تأثيراً
١٦	القاعدة الثالثة
١٦	أن الداعية الناجح من يقدم البدائل الدعوية لمن يدعو مباشرة
١٨	القاعدة الرابعة
١٨	أن الداعية الحكيم من ينوع في أساليب الدعوة ولا يقتصر على نوع واحد.
٢٠	القاعدة الخامسة
٢٠	أن الداعية الناجح من يقسم وقته في اليوم والليلة أقساماً، قسم للدعوة إلى الله تعالى حسب الحاجة الحاضرة، وقسم لأهله، وقسم لضييفه، وهكذا لكل واجب وقته.
٢٣	القاعدة السادسة
٢٣	أن على الداعية أن يُعنى ببيته وأولاده، فمن أخطر الأمراض أن يُشغل عنهم بدعوى الانهماك بالدعوة وضيق الوقت.
٢٥	القاعدة السابعة

- أني قد أجد فيمن يمارس الدعوة غفلةً عن أمور بدهيات، ولا سيما في
شخصه وأسرته، فما موقفي إلا التقرب والنصح والتذكير..... ٢٥
- القاعدة الثامنة..... ٢٧
- أن للشيطان مداخل يدخل بها على طالب العلم والداعية قد لا يدخل
منها على غيره..... ٢٧
- القاعدة التاسعة..... ٣٠
- أن بعض من يدعي العلم وأرباب البيان يدُّلون الناس إلى الجنة، ثم
يكبون على وجوههم في نار جهنم..... ٣٠
- القاعدة العاشرة..... ٣٣
- أني إذا أردت أن أدعو عاصياً أن أبدأ بأخطر ما عنده من المعاصي
وأسكت عن الأصغر حتى تتم معالجة الأخطر..... ٣٣
- القاعدة الحادية عشرة..... ٣٦
- أنه كلما زاد علم الداعية قل إنكاره واعتراضه..... ٣٦
- القاعدة الثانية عشرة..... ٣٨
- أن الداعية البصير من يأخذ نفسه بأشد العزائم، ويرضى من الناس
بأوسع الرخص..... ٣٨
- القاعدة الثالثة عشرة..... ٤١
- أن دعوة أنصاف العلماء أصعب على الروح والقلب والجسد من قرية من
العوام..... ٤١
- القاعدة الرابعة عشرة..... ٤٤
- أن من أكبر المخفقين في الدعوة هم الذين يدعون بالكلام دون العمل،

- ويطلبون من الناس العمل ٤٤
- القاعدة الخامسة عشرة ٤٦
- أن من يسكت عن الدعوة خير من الذي يدعو على غير بصيرة، فالذي يدعو
على غير بصيرة قد يهدم أكثر مما يبني ٤٦
- القاعدة السادسة عشرة ٤٨
- أن من أفدح أخطاء الداعية أن يدخل العوام في الاختلاف بينه وبين
العلماء ٤٨
- القاعدة السابعة عشرة ٥١
- أن الداعية الماهر من يزن لكل موقف حاجته من الشدة واللين، وليس
الداعية الحكيم من يأخذ باللين فحسب، أو الشدة وحدها ٥١
- القاعدة الثامنة عشرة ٥٤
- أن لا تتنازل عن الكليات والأساسيات مهما كلف الأمر، لكننا نترك
بعض الجزئيات - وإن كانت مهمة - إن تعارضت مع مصلحة أكبر ٥٤
- القاعدة التاسعة عشرة ٥٧
- أن لسان الداعية قطعة من لحم، لكنها تقطع القلوب إذا أساءت، وتقطع
أوسع الطرق السيئة عن المدعو إذا أحسنت ٥٧
- القاعدة العشرون ٦٠
- أن الدعوة للدين عند الداعي كالذي به جوع ونهم فهو لا ينسى قرص
الجوع، وكذلك الداعية لا يترك فرصة إلا انتهزها بالدعوة إلى الله ٦٠
- القاعدة الحادية والعشرون ٦٢
- أن الداعية يشبه المهندس الزراعي في صنعته^(١)، فأحياناً يزرع، ومرة يقطع،

- وأخرى يداوي ٦٢
- القاعدة الثانية والعشرون ٦٦
- أن الداعية الموفق من يقدم لكل مريض ما يناسبه من دواء، وإن كانت الشكوى واحدة ٦٦
- القاعدة الثالثة والعشرون ٦٩
- أن الداعية إذا لم يواكب عصره فلا مطمح له بنجاح يذكر ٦٩
- القاعدة الرابعة والعشرون ٧٢
- ألا أتميز على المدعويين بلباس أوزي غير مألوف للناس ٧٢
- القاعدة الخامسة والعشرون ٧٤
- أن من أكبر عوامل هدم العمل الجماعي هو تتبع الزلات بين فريق العمل، وأكبر موفق لها التغاضي عن الدنيا، وعن الزلل الصغير بين العاملين ٧٤
- القاعدة السادسة والعشرون ٧٧
- أن الداعية البصير من يكون واقعياً مع إخوانه فيعاملهم على أنهم بشر يخطئون ويصيبون ٧٧
- القاعدة السابعة والعشرون ٨٠
- أنني قد أدعو من اقترب الكبائر فأجد منه القبول والشكر، وقد يمتنع التقي عن قبول النصيحة ٨٠
- القاعدة الثامنة والعشرون ٨٣
- أن أركز في دعوتي على أصناف الشباب، فهم أسرع قبولاً واستجابة، وأقدر على التغيير ٨٣
- القاعدة التاسعة والعشرون ٨٥

- أن يوطن الداعية نفسه على سماع نصيح من هو دونه، فقد تجد في السواقي
 ما لا تجد في المحيطات ٨٥
- القاعدة الثلاثون ٨٨
- إن ضاق بي بلد أن أخرج إلى غيره ٨٨
- القاعدة الحادية والثلاثون ٩٠
- ألا أصغي لكلام المثبتين مهما قالوا، وألا ألتفت لما يضحون من عقبات
 وسلبيات ٩٠
- القاعدة الثانية والثلاثون ٩٣
- أن العبرة عند الداعية للمقاصد والمعاني، لا الألفاظ والمباني ٩٣
- القاعدة الثالثة والثلاثون ٩٥
- أن ألاحظ قوة التلقي من عيون الناس، وألا أطيل بالنصح وإن صرحوا
 ورحبوا بالزيادة ٩٥
- القاعدة الرابعة والثلاثون ٩٨
- أن أخطب الناس بما ترتاح إليه قلوبهم ولا ينفر منه سمعهم ٩٨
- القاعدة الخامسة والثلاثون ١٠٠
- أن أحرص على العبادة الشخصية والدعوة، وعند تعارضهما أن أقدم
 الدعوة على العبادة الخاصة، وأقدم ما ينفع الأمة على ما يقتصر نفعه علي ١٠٠
- القاعدة السادسة والثلاثون ١٠٢
- ألا أتمسّس للمدعو بأكثر من تحمسه لنفسه ١٠٢
- القاعدة السابعة والثلاثون ١٠٤
- أن أبحث عن أفضل صفة فيمن أدعوه، فأصرح بها، ثم أنطلق في نصيحتي ١٠٤

- القاعدة الثامنة والثلاثون ١٠٧
- أن أتعمق في تحليل نقاط القوة والضعف فيمن أدعوه ١٠٧
- القاعدة التاسعة والثلاثون ١٠٩
- أن أتكلم حين يطلب الكلام مني، وأفرح لتقديم غيري من الدعاة، مع
الإنصات وحسن الاستماع ١٠٩
- القاعدة الأربعون ١١٢
- أن لا أفرض طريقتي في الدعوة على أحد، ولا أنكر مسلك غيري من
الدعاة، فإن لم تعجبني طريقة غيري في دعوته انسللت من مجلسه برفق دون
تشويش ولا لفت انتباه ١١٢
- كلمات سريعة من خلاصة كتاب: هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى ١١٧